

الموسوعة الصغيرة

٢٥

الصهيونية ليست حركة قومية

بديعة أمين



## مقدمة

موضوعه هذا البحث التي تستهدف تنفيذ مقولة ان الحركة الصهيونية حركة قومية ، سبق لي ان تناولتها في بعض مما نشرت حول المسئلة اليهودية والصهيونية والتفصية الفلسطينية . غير انه بالرغم من المحاولات السابقة التي كنت اسمي من خلال القيام بها الى البرهنة على خطأ تلك المقولة ، فان احساساً مقلقاً غالباً ما كان يمتلكني ، هو ان نقيض هذه المقولة - عدم كونها حركة قومية - لم يكن قد تبلور لدي بشكل استطيع ان اشعر معه ان بحث هذه المسئلة ودراستها دراسة علمية موضوعية قد استفذ من كل الوجوه والجوانب . هذا الاحساس يكون المحاولة غير مكتملة الجوانب كان نتيجة طبيعية لعدم توفر الكثير من المصادر التي تتطلبها محاولة اثبات نقيض المقولة السائدة .

حقاً . . ان هناك اعتقاداً عاماً في الوطن العربي بان الحركة الصهيونية حركة إستعمارية وان الكيان الاسرائيلي ما هو الا امتداد متأخر للظاهرة الاستعمارية ، وقاعدة استعمارية متقدمة في المنطقة . غير ان هناك في الوقت عينه ، وبخاصة في الأوساط الفكرية والسياسية العالمية ، اعتقاداً سائداً يعبر عن قناعة راسخة بان الصهيونية حركة



وإنشاء قنصلية في القاهرة

قوية وان الدولة الإسرائيلية انما هي وجود مادي متبلور للحركة « القومية اليهودية » . وقد ساعد هذا الاعتقاد ، خلال المائة عام الماضية ، بل وحتى في الوقت الحاضر ، على ان تفلح الحركة الصهيونية في كسب تأييد الدول الكبرى وتبنيها للمشروع الصهيوني ، وكذلك في استقطاب تأييد الراي العام العالمي ، بما في ذلك اليسار التقدمي المعاصر ، حول اقامة دولة يهودية في فلسطين .

ان ما يؤسف له ، ان طرح هذه المقولة كان قد جرى بدرجة من القوة والانتساع بحيث انه اقلح في طمس ما يمكن ان يثبت العكس ، او ان اثبات نقيض تلك المقولة لم يجر - حسبما اعلم - بشكل علمي يستند الى اسانيد ومعطيات علمية يمكن الركون اليها ؛ او انه غالباً ما كان يكتفى بالقول بان الصهيونية حركة استعمارية دون محاولة تفنيد مقولة انها حركة قومية ، وطرح نقيضها على الراي العام العالمي بهدف اقتناعه بخطا ذلك الاعتقاد ومن ثم ، وقف تاييده للحركة الصهيونية ودولة اسرائيل .

ان قطاعات واسعة من الراي العام العالمي ما تزال مقتنعة بصحة الحركة الصهيونية و « حق » اليهود في اقامة دولة لهم في فلسطين ؛ دون ان يخطر ببال تلك القطاعات ان الوجه الاخر لاقامة

مثل هذه الدولة في « وطن الآخرين » يعني تماماً تحويل ذلك الوطن الى مستعمرة لا تختلف بشيء عن روديسيا وجنوب افريقيا . والامر الذي يثير الاستغراب ان نفس الراي العام العالمي الذي يعارض الوجود الاستعماري في هذين البلدين ، يتقبل كل تبريرات اسرائيل لسياستها التوسعية الاستعمارية ، وحروبها العدوانية وتشريدتها للسكان الاصليين لفلسطين !

انني اعتقد اعتقاداً جازماً بان جزء هاماً من نضالنا ضد الصهيونية والوجود الاسرائيلي الاستعماري ، يكمن في وقف تأييد الراي العام العالمي للصهيونية واسرائيل ، نظراً الى ان هذه تتند استناداً يكاد يكون كلياً الى ما تلقاه من تأييد ودعم رسمي من قبل عديد من الدول ، وغير رسمي من جانب الراي العام العالمي . ولا يتم وقف هذا التأييد بمجرد تكرار ان الصهيونية حركة استعمارية وان اسرائيل قاعدة استعمارية ، دون محاولة زعزعة قناعة الراي العام العالمي الراسخة بان : الاولى حركة قومية وان الثانية دولة قومية ، وان كلا المسألتين تدخلان في نطاق الحتمية التاريخية وانهما بالتالي ، محصلة طبيعية لحركة التطور التاريخي ! اننا لانستطيع ان نثير شكوك الراي العام العالمي في قناعاته الاولية العميقة ، دون

## ماهية الحركة الصهيونية

ثمة مسألة يبدو اننا لم نعرها ما تستحق من اهتمام برغم انها على فسط كبير من الاهمية ، او اننا كنا حتى الوقت الحاضر ، غالباً ما نكتفي ، لفهمها ومعالجتها ، براحة اللجوء الى اسهل التفسيرات او ما يبدو انه اقرب الى المنطق المفترض ، والتحليل العلمي المفترض ، من ايسة تعليقات اخرى . واقول المفترض نظراً الى انه لا يستند الى كل الحقائق المادية والقومات الاصلية للقضية موضوع البحث ، وانما يركز الى جانب معين من الحقائق المادية الحية حسب ؛ في حين ان اي تحليل علمي يضع نصب عينه هدف الوصول الى نتائج صحيحة ومقبولة ، لا يرقاها شك ولا تنالها تقيصة ، لا بد من ان يستند الى مجمل ما هناك من حقائق مادية فعلية ذات علاقة بالموضوع ، والى مجمل الظروف التي تكتنف ذلك الموضوع ، والتي يمكن ان تمارس تأثيرات لا يمكن اغفالها في الوصول الى نتائج نهائية متكاملة ، وخاصة اذا ما كانت القضية موضوع البحث واقعة ضمن اطار تاريخي محدد ، ينتمي الى زمن مضى ، وتتحكم به ظروف مادية معينة تشكل السمة الاساسية لتلك المرحلة التاريخية . تلك المسألة هي ما اذا

ان يقدم له بدائل تستند الى بحث علمي وموضوعي يقوم على ادلة ووقائع واسانيد مادية تاريخية .

من هذا المنطلق .. ومن الاحساس بان محاولاتي السابقة في هذا المجال ، لم تكن مكتملة .. عدت الى الموضوع ثانية بعد ان توفرت لدى مصادر جديدة ، وجدت انها تستطيع ان تسد فقرة بيئة في تلك المحاولات .

اننى آمل ان يكون بمقدوري ان اسد نقصاً طالما كان يحتل في ذهني زاوية مؤرقة . وان وقف مسماي ، هذه المرة ايضاً ، دون ما اطمح اليه ، فاننى آمل ان تجد هذه المسألة من يرغب ويستطيع ان يلقي مزيداً من الضوء على واحدة من اشد المسائل المتعلقة بالصهيونية تعقيداً - مسألة ان الصهيونية ليست - كما هوشائع - حركة قومية .

بديدة امين

« كانت الحركة الصهيونية حركة قومية وتعبراً  
أيدولوجياً عن المصالح « القومية » للطبقة  
البورجوازية اليهودية ، مما يرشحها بالتالي لان  
تكون واحدة من الحركات القومية في التاريخ  
الحديث ، ويمنح بروزها مبرراً شرعياً ويسبغ عليه  
حتمية تاريخية تجعل نشوء تلك الحركة ونموها  
وتطورها ونضالها مسألة لا بد منها من حيث انها  
مشروطة بحركة التاريخ .

قد يبدو ان الحديث عما اذا كانت الحركة  
الصهيونية حركة قومية أم لا ، وما اذا كانت  
تعبراً أيدولوجياً عن مصالح البورجوازية اليهودية ،  
حديث متأخر جاء بعد فوات الأوان . فالدولة  
الإسرائيلية قد وجدت ، سواء كانت ممثلة لقومية  
ما أم لم تكن . غير ان المسألة ليست كذلك ،  
باعترادي . ان محاولة تعرية حقيقة الحركة  
الصهيونية والوجود الإسرائيلي بوصفه قاعدة  
استعمارية قبل أي شيء آخر ، وكشف عمليات  
التزييف الصهيونية التي ساهمت ، طيلة المائة عام  
الماضية ، في حمل الرأي العام العالمي على تأييد  
قيام دولة إسرائيل لتكون ملجأ قومياً لليهود ،  
نظل محتفظه بقيمتها التاريخية ، طالما كنا مقتنعين  
بكوننا مدافعين عن قضية عادلة ، وطالما كنا مقتنعين  
بان الحركة الاستعمارية ، وبضمنها الحركة

الصهيونية ، انما هي تيار رجعي يسير بانجساره  
معاكس لحركة التطور التاريخي . هذا من جهة ،  
ومن جهة أخرى ، فان الحكم على طبيعة ودوافع  
حركة ما ، لا يمكن ان يتم في ضوء ما قد يحدث من  
تحولات او احداث في الجانب التطبيقي من برنامج  
واهداف تلك الحركة ، بفعل الظروف الزماني ، او  
نتيجة للتحولات او المتغيرات التي تملحها حركة  
التاريخ ، حيث ان اية تحولات تطراً في زمن لاحق ،  
لا يمكن ان تغير واقع وحقيقة الدوافع الأساسية  
لتلك الحركة ، وبالتالي ، لا يمكن ان تمارس ايما  
تأثير في سمات وخصائص وطبيعة واهداف الحركة  
المعنية . وعليه لا بد ان يستند تقويم تلك الحركة  
الى المقومات والعناصر الأساسية المكونة لها اولاً ،  
والى مميزات وسمات الاطار التاريخي الذي تبرز  
فيه ثانياً ، والظروف المعينة التي ادت الى  
بروزها ، ثالثاً . كما انه لا يجوز بحال من الاحوال  
الاكتفاء بظواهر جانبية او سمات ثانوية قد تبرز  
في المرحلة التي تفرز في ظلها الحركة المعنية ، وانما  
ينبغي ان يتم التقويم في ضوء الخصائص والميزات  
الأساسية لتلك المرحلة . على ان هذا لا يعني ان  
التطورات والاحداث التي قد تستجد في فترات  
زمنية لاحقة يجب ان تهمل كلياً ، وانما لا بد من  
الاستفادة منها ايضاً في هذا المجال .

هذا من ناحية . ومن ناحية اخرى ، فان محاولة القاء اضواء جديدة تضيء الجوانب الممتمة من هذه الحركة للكشف عن حقيقتها بصورة علمية تبدو الان اكثر الحاحا في ضوء التجربة الفعلية التي خاضتها الحركة الصهيونية بانشاء « دولة اسرائيل » . اصف لهذا ان معرفة حقيقة ما نناضل ضده تنطوي على جانب كبير من الاهمية ، من حيث ان تلك المعرفة لاتسهم في تحديد وتوجيه مسار نضالنا حسب ، وانما يمكن ايضا ان توفر لنا اساسا ماديا لتعريف ومن ثم كسب الراي العام العالمي الذي مازال يقف الى جانب اسرائيل والصهيونية عموما ، بالرغم من عدالة قضيتنا وشرعية نضالنا .

لقد جرت ، وخاصة ما بعد الحرب العالمية الثانية وقيام الدولة الاسرائيلية ، وفي خضم الحروب والعمليات العدوانية التي ما انفكت تلجأ اليها اسرائيل منذ قيامها ، ضد الاقطار العربية ، محاولات عديدة لدراسة وتحليل الحركة الصهيونية ودوافعها من قبل العديد من الكتاب الغربيين والماركسيين وممثلي اليسار في مختلف البلدان ، وكذلك من قبل عدد من الباحثين العرب . وبرغم الاختلافات الجذرية التي تنطوي عليها المتطقات البدئية والنظريات الفلفية التي تحدد وجهات

نظر اولئك الكتاب من بورجوازيين مثاليين او ماديين ماركسيين عند تحديد الدوافع والاطر العامة لايماء حركة تاريخية ، وبالتالي تعيين هويتها واتجاهاتها واهدافها ، فان هناك ما يقرب من الاجماع على اعتبار الحركة الصهيونية ، حركة قومية . اصف لذلك ، ان الكتاب والباحثين الماركسيين واليساريين عموما يعتبرونها تعبيرا ايدولوجيا عن الطبقة البورجوازية اليهودية . ولعل التحديد الصريح الوارد في « اعلان بلغور » « وطن قومي » ، يمكن ان يمثل خلاصة ما توصل اليه الفكر البورجوازي الاوربي بصدد تعيين هوية هذه الحركة ، على ان لانسى ان ذلك الفكر ، حين يقرر موقفا ما ازاء اية قضية ، انما يفعل ذلك انطلاقا من مصالحه الخاصة ومن الدوافع الاساسية التي تقرر اتجاهاته وبالتالي موافقته او رفضه لتلك القضية . وموقف الفكر البورجوازي الاستعماري من الحركة الصهيونية لايشذ عن هذه القاعدة .

ومن هنا ، فان اعتبار الحركة الصهيونية على انها حركة قومية ، هدفها إقامة وطن قومي لليهود ، في ظروف بلوغ النظام الراسمالي ذروة مرحلته التوسع الامبريالي في اواخر القرن الماضي ، تحت ستار التظاهر بان ذلك قد جاء نتيجة لدوافع

وبحسب ما تفسر مفتح لاهية الحركة الصهيونية ، يميل الكتاب والباحثون الماركسيون واليساريون عموماً الى دراسة وتحليل مسألة بروز هذه الحركة ، من منطلقات الفهم الماركسي للمسألة القومية وحركة الاحداث التاريخية والتطور الدايالكتيكي للمجتمع البشري . وبالرغم من حقيقة ان اية دراسة موضوعية لاية قضية ، تفترض بالضرورة ، اخذ مجمل الظروف النوعية التي تلازم تلك القضية ، والاطار التاريخي الذي تبرز في ظله ، بعين الاعتبار ، فانه يستدل مما نشر من العديد من الدراسات اليسارية حول هذه المسألة ، انها قد عزلت بصورة تعسفية عن جانب من الخصائص والظواهر المادية للاطار التاريخي الذي برزت في ظله ، كما عزلت عن الظروف النوعية التي كانت تكتنفها والتي ادت بصورة حتمية الى ظهورها . وان معالجة تلك المسألة قد تمت في ضوء اقتراضات معينة بعيدة تماماً عن الواقع الموضوعي لتلك القضية . على انه لا بد من الاشارة هنا ، الى ان ذلك ، لم يجر - حسبما اعتقد - بدافع من سوء القصد او النية ، وانما كان ، على ما يبدو ، بدافع من الالتزام بصورة دوكماتية بمنهج معين ، انطلاقاً من الاعتقاد بان صلاحية استخدام ذلك المنهج - المنهج المادي - لتفسير حركة التاريخ

انسانية وبتأثير من الفكر المسيحي والترابط الوثيق بين الثقافتين المسيحية واليهودية ، لا يمكن ان يخفى حقيقة ان « ... فكرة توطين اليهود في فلسطين كانت » كما قال سير لورانس اوليفانت ( Lawrence Oliphant ) الصهيوني البريطاني الاممي ، « ترتبط بالحاجة الى ضمان تغفل بريطانيا السياسي والاقتصادي في فلسطين . » (١)

ولا بد ان نلاحظ هنا ان تحديد هوية الحركة الصهيونية في « اعلان بلغور » ، قد اشر منذ البداية ، المنطلق والاتجاه لاية محاولة تستهدف بحث وتحليل الحركة الصهيونية على صعيد الفكر الغربي وكمثال على ذلك ما يقوله ريتشارد كروسمان ، الاشتراكي البريطاني ، في كتابه المعتون ( امة تولد من جديد ) [ لاحظ استخدامه لتعبير « امة » ] : « ... ان من السخف التظاهر بان عرب اسرائيل يشعرون بانهم مواطنون متساوون في هذه الدولة اليهودية القومية . » (٢)

(١) جانسن . جي . ، ا . ج . ، الصهيونية ، اسرائيل والقومية الاسيوية ، مركز الدراسات الفلسطينية ، بيروت ، ١٩٧١ ، ص / ١٠٨ . ( النسخة الانكليزية ) .

(٢) Crossman. Richard, A Nation Reborn (٢) Hamish Hamilton, London, 1960, P. 95.

وتطور المجتمعات البشرية وانتقالها من مرحلة معينة الى مرحلة لاحقة ، تستتبعها امكانية استخدام المنهج ذاته لتفسير كل الاحداث التاريخية التي قد يكون من بينها ما يشبه انه لم يقع كحتمية تاريخية ، وانما جاء بصورة مفتعلة . ومن تلك الافتراضات المستمدة من المنهج المادي لتفسير التاريخ والتي تم في ضوئها تفسير الحركة الصهيونية ، افتراض وجود تركيب طبقي ضمن المجموعات اليهودية المتواجدة في اوربا يماثل التركيب الطبقي الموجود ضمن اي شعب يحدث ان توجد بينه مجموعة او جالية يهودية ، مع ما ينطوي عليه ذلك من وجود صراع طبقي ضمن المجموعة اليهودية . وفي هذا يقول مؤلفو كتاب ( الصهيونية - نظرية وممارسة ) :

« ان انقسام الطوائف اليهودية وتقويض تأثير الديانة اليهودية ، وتصارع عملية التجنس والاندماج في ظروف الامبريالية ، كل ذلك قد اثار قلق الاوساط اليهودية العليا المستغلة ، على الصعيدين المادي والاجتماعي ، اللذين يعكسان مستوى سيطرة الاغنياء اليهود على الكادحين منهم . فقادة البورجوازية اليهودية ، الباحثين عن وسائل جديدة لاعادة مواقعهم السابقة المعتادة ، وجدوا ضالتهم المنشودة في المذهب الصهيوني ، الذي اسسه

صحفي من فينا ، منحدر من ارسقراطية بودابست اليهودية ، هو تيودور هرتزل . « (٢) » وبمضى مؤلفو الكتاب الى القول : « ... كان الحديث يجري عن « موطن تائمير » يمكن ان يوحد اليهود المبعثرين في ارجاء العالم ، ايدولوجياً وروحياً ، وبخضعهم لقيادة الصهيونية العالمية ويفرض عليهم الضرائب ، ويمنعهم من التجانس مع شعوب البلدان ، التي يعيشون ضمنها . وباختصار فان هذا « الموطن » يتخى تحويل اليهود في بلدان العالم كافة الى اداة بيد البورجوازية اليهودية الكبيرة ، وتسخير الجماهير اليهودية في خدمة مطامعها واهدافها السياسية . « (٤) » وعلى صفحة ( ١٦٨ ) نقرا ما يلي : « وتحاول الصهيونية ، باعتبارها تمثل في جوهرها ايدولوجية البورجوازية الكبيرة ، الادعاء بحق تمثيل اليهود كافة ، بغض النظر عن انتمائهم الطبقي وجنسياتهم وارانهم . » ثم : « ولم تشجب الاممية الشيوعية جميع اشكال الصهيونية وحب ، بل فضحت ايضاً نية اخفاء

(٢) مجموعة من الكتاب السوفيت ، الصهيونية - نظرية وممارسة ، ترجمة يوسف سلمان ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٧٤ ، ص / ٥٩ .

(٤) نفس المصدر ، ص / ١٠٦ .



هذه الايدولوجية القومية ( العنصرية ) بلباس اشتراكي . « (٥) »

وفي كتيب « سيف داود » مؤلفه ليوكورن ، تستهل وكالة انباء نوفوستي الرسمية ، مقدمتها التي تصدر الكتيب بما يلي :

« ان صهيونية اليوم تشكل اكثر القوى رجعية للقومية البورجوازية . « (٦) ثم : « لقد ظهرت الصهيونية في الجزء الثاني من القرن التاسع عشر كابدولوجية قومية بورجوازية رجعية وعنصرية ، ومنذ البدء ، ارتبطت الحركة الصهيونية ارتباطاً وثيقاً عن طريق سياساتها بسياسات القوى الاستعمارية القائدة . « (٦) »

ولو عدنا لسؤالين الذي يعتبر بحثه لمفهوم القومية واحداً من افضل ما نشر من معالجات علمية لهذه القضية ، فان من المستغرب ان نجابه بوصفه للحركة الصهيونية على انها حركة قومية : « ويفرد ستالين مناقشة مستفيضة للبوند ، يتابع فيها خط لينين ، وينكر عليهم تمثيلهم لليهود ، ويعرف الحركة الصهيونية ، بأنها « حركة قومية رجعية للبورجوازية اليهودية ، تجند اباعها من

(٥) نلسي المصدر ، ص / ٢٧٥ .

(٦) Korn. Leo, The Sword Of David, Moscow, 1977, P. 5.

بين المثقفين ، ومن اوساط العمال اليهود المتخلفين والصهيونيين الذين يريدون عزل جماهير العمال اليهود عن النضال العام للبروليتاريا . « (٧) »

ويقرر ابراهام ليون ، المفكر اليهودي الماركسي : « ان الصهيونية ، اذن ، حركة قومية حديثة ، وهي احدث الحركات القومية الاوربية . « (٨) »

وعلى صعيد العالم العربي الذي تبمه القضية اكثر من غيره اطلاقاً ، توصل بعض الباحثين العرب ممن تناولوا القضية بالبحث ومن يقفون في طليعة المدافعين عن القضية العربية والمسألة الفلسطينية الى نتائج مماثلة . فالدكتور صادق جلال العظم يطبق في معرض تحليله نشوء الحركة الصهيونية والصراع المفترض بين البورجوازية اليهودية والبورجوازية المسيحية في اوربا الغربية في اواخر القرن التاسع عشر ، في ظروف صعود النظام الرأسمالي - يطبق القوانين التي تتحكم في مسألة التحرر القومي على الحركة الصهيونية فيقول :

(٧) ادبب ديمتري ، الماركسية والدولة الصهيونية ( الوجود والكيان ) ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٧١ ، ص / ٦٧ ، مقتبس عن ستالين ، المسألة الوطنية .

(٨) ليون . ابراهام ، المفهوم المادي للمسألة اليهودية ، ترجمة عماد توبعش ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٦٩ ، ص / ١٨٢ .

« أخذ هذا الصراع مظهر حركة العداة للسامية بين الاوربيين من غير اليهود مما دفع اليورجوازبية اليهودية نحو البحث عن سوق وطنية خاصة بها لايزاحمها عليها أحد ، ومن هنا بدا الكلام الجاد عن ( الامة اليهودية ) و ( الدولة اليهودية ) في اوساط الطبقة اليهودية الوسطى واوساط المعبرين عن مصالحها وتطلعاتها . » (٩) . ويميل السيد قاسم حسن الى الاعتقاد بان : « ... الراسمالية اليهودية قائدة الحركة المسماة بالصهيونية . » (١٠) بينما يقطع الدكتور ميشيل سليمان بان الصهيونية حركة قومية ، كما يتضح ذلك من قوله : « في حين ان جميع الحركات القومية هي ، بمعنى من المعاني ، محاولات في اعادة تحديد صور الشعوب عن نفسها فان الصهيونية ، الحركة القومية اليهودية خلال القرن الماضي ، يكاد يكون من غير الممكن تحديدها على هذا النحو فقط . » (١١)

(٩) الدكتور صادق جلال العظم . دراسات يسارية حول القضية الفلسطينية ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٧٠ ، ص / ٨٩ .

(١٠) قاسم حسن . العرب والمشكلة اليهودية ، المؤسسة التجارية للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٦٩ ، ص / ٨١ .  
(١١) الدكتور ميشيل سليمان . وسائل الاعلام الامريكية وحرب تشرين ، مجلة شؤون فلسطينية ، العدد ( ٢٠ ) كانون اول ( ديسمبر ) ١٩٧٢ ، ص / ٨٢ .

ومن ناحية اخرى ، فانه لامر اعتيادي تماما ، ان تصور الاقلام الصهيونية هذه الحركة على انها حركة قومية . ولا اظنني بحاجة الى ايراد ما يعزز هذا ، لكثرة وشيوع ما نلتقي به في قراءتنا من اقوال ومزاعم في هذا الشأن .

ليس من شك في ان قلة المصادر المتوفرة التي تتناول القضية موضوع البحث بصورة موضوعية علمية ، وحقيقة ان غالبية ما نشر عنها انما يعبر عن وجهة النظر الصهيونية ، وان تلك الاكاداس الهائلة من الكتب والادبيات تستهدف اولا واخيراً تزييف سمات وحقيقة هذه الحركة الاستعمارية ، وتزوير الحقائق التاريخية المرتبطة بها وبواقع الوجود اليهودي في اوربا ، وتغضية كل ذلك بما يمكن ان يساعد في حث تنفيذ اغراض الحركة وتضليل الراي العام العالمي ، وكسب الانصار من بين مختلف الاوساط ، حتى وان كانت متباينة الاتجاهات ، في مختلف البلدان ؛ الى جانب حقيقة ان البحوث العربية الموضوعية ذات المنهج العلمي في هذا الخصوص ظلت غائبة عن مسرح الفكر طيلة عقود بكاملها ، ولم يبدأ الفكر العربي بطرح مثل هذه البحوث الا مؤخراً - اقول ليس من شك في ان وضعاً كهذا يمكن بسهولة ان يضع الباحث في متاهة تفلق عليه مجال رؤية الابعاد الحقيقية والعناصر

الاولية المكونة لهذه الحركة ، ولا تتيح له غير رؤية ذلك الجانب الذي تربده الصهيونية . ومن هنا فان مسألة تحديد السمات الحقيقية والهوية الاصلية للحركة الصهيونية نيس بالامر اليسير . وعليه فليس من المستبعد ان يتوصل البعض ممن يعنى ببحث ودراسة هذه القضية الى نتائج وتحديدات قد تتناقض كلياً وحقيقة هذه الحركة ودوافعها .

ومما قد يساعد على الابتعاد عن امكانية تعيين تلك الهوية ، الوقوع تحت تأثير بعض الظواهر الحسية التي يمكن ان تبرز في مرحلة تاريخية معينة - مرحلة ظهور الحركة الصهيونية - والتي قد تتخذ مظهر سمة رئيسية من سمات تلك المرحلة ، الى جانب السمات والخصائص الاساسية التي تتميز بها تلك المرحلة . وبالرغم من ان تلك الظواهر انما هي سمات جانبية متخلقة عن مرحلة تاريخية سابقة ، فانه قد يبدو للبعض ان تلك الظواهر تشكل جزء من الخصائص والسمات الاساسية الهامة لتلك المرحلة . ان هذا التداخل بين السمات الاساسية العامة ، وبين ما ينتحل مظهر سمة مميزة ، قد يؤدي ، عند تقييم المسألة موضوع البحث ، الى اغفال الدور الذي يمكن ان تلعبه الخصائص الرئيسية المميزة لتلك المرحلة في تشخيص تلك المسألة ؛ او انه قد يقود الى عدم

ايلاء ذلك الدور ما يستحق من اهتمام . ولايضاح هذه النقطة ، نعود الى القرن الماضي الذي برزت فيه الحركة الصهيونية . لقد تميز القرن التاسع عشر بخاصية اساسية - خاصة كونه عصرًا دخلت فيه الحركة القومية مرحلة تعمق وانحطاط ، وتحولت فيه الى ظاهرة رجعية ، شوفينية ، إستعمارية ، اعتدائية ؛ حيث دخلت الراسمالية فيه اعلى مرحلة من مراحل تطورها : المرحلة الاستعمارية الامبريالية التوسعية . بينما نلاحظ ، من جهة اخرى ، ان نفس هذه الفترة الزمنية ، شهدت ، بروز حركات قومية متأخرة في ماتبقى من البلدان الاوربية التي لم تكن - ابان القرن الثامن عشر ( قرن نشوء وازدهار الحركة القومية التي تعتبر الثورة الفرنسية ( ١٧٨٩ ) اول انتصار حقيقي لها ) - لم تكن مؤهلة لولوج مرحلة النضال القومي من اجل الوحدة الوطنية والقضاء على البعثة الاقطاعية وقيام البورجوازية الوطنية بانتزاع السلطة من الاقطاع . ان الحركات القومية التي كانت تشكل خاصية اساسية وسمة مميزة وتمييزة في القرن الثامن عشر ، لا يمكن ، كما اعتقد ، ان تعتبر سمة اساسية مميزة للقرن التاسع عشر ، وانما كانت سمة جانبية نجمت عن ظاهرة متخلقة من القرن الثامن عشر . وبنتيجة ذلك ، وبالرغم من ان

ان تقويم حركة سياسية في ضوء ظاهرة جانبية تبرز في مرحلة تاريخية متأخرة ، وقد فقدت - اي الظاهرة - ميزاتها الاساسية ، او انها قد انتحلت الى جانب تلك السمات ، الميزات التي تنسب بها في مرحلة زمنية متأخرة ، ينطبق اشد الانطباق على الحركة الصهيونية . فقد تم تقويم وتحديد هوية هذه الحركة في ضوء حركة النضال القومي الذي خاضته شعوب عدد من بلدان اوربا في اواخر القرن الماضي - البلقان - من اجل التحرر الوطني ، وربما بدرجة اكبر في ضوء الحركة القومية في ايطاليا والمانيا اللتين كانتا تعيان من بين امور اخرى - الى تحقيق الوحدة القومية والقضاء على التجزئة الاقطاعية ، مما ادى الى نعمت الحركة الصهيونية بانها حركة قومية .

حقاً .. اننا لانستطيع الا ان نقر بصحة مثل هذا المنهج في دراسة وتحليل وتفسير الوقائع التاريخية بشكل عام . غير انه ينبغي ان نتذكر انه ليس من المستبعد ان يؤدي ذلك ، في حالات معينة ، الى الوقوع في منزلق وضع تقييمات تفشل في ان تكون مطابقة لحقيقة وواقع المسألة موضوع البحث وخاصة اذا ما كان جوهر القضية والظروف النوعية التي تكتنفها ، وخصائصها الفعلية ، قد

الحركات القومية كانت عند انفجارها ابان القرن الثامن عشر ، ظاهرة تقدمية صحية وضعت حدا لسلطة نظام اقتصادي - اجتماعي انتهى دوره - النظام الاقطاعي - فانها ، اي الحركات القومية المتأخرة [ ايطاليا ، المانيا ، مثلا ] لم تستطع الا ان تقع تحت تأثيرات الخواص الجديدة التي انتحلتها الحركة القومية في مرحلة تعفنها ، وكذلك تأثيرات السمات والخصائص الاساسية العامة التي تميز بها القرن التاسع عشر : خاصية الظاهرة الاستعمارية - الامبريالية ، والتسلط على الشعوب الاخرى والتوسع الجغرافي خارج حدود القارة الاوربية . ففي الوقت الذي كانت فيه الحركات القومية المتأخرة ، تتميز بصفات تقدمية - انهاء السلطة الاقطاعية ، تحقيق الوحدة الوطنية الخ .. من جهة ، فانها استمدت في الوقت عينه ، بعض السمات والخصائص المتأخرة للحركة القومية ، من جهة اخرى . وهكذا .. فانه لم تكفد الحركة القومية في ايطاليا والمانيا ان تحقق اهدافها - انتزاع السلطة من الطبقة الاقطاعية ، تحقيق الوحدة الوطنية الخ .. حتى اندفعت باتجاه حماية مصالحها في بلدان اسيا وافريقيا وانتزاع حصتها من المائدة الاستعمارية : اسواق خارجية ، مصادر للمواد الاولية ، استثمارات خارجية .

أبقى محاطاً بضباب مبهم ، كما الامر بالنسبة  
للحركة الصهيونية .

ان اطلاق صفة « قومية » على الحركة  
الصهيونية واعتبارها تعبيراً ايديولوجياً عن مصالح  
« الطبقة » البورجوازية اليهودية ، يتعارض في  
حقيقة الامر ، والمعطيات والوقائع التاريخية لهذه  
الحركة والقوى الاساسية المحركة لها والمستفيدة  
منها . وهو اضافة لذلك يعني ، شئنا ام ابينا ،  
الاقرار باصالة هذه الحركة اولا ، وباحتمية قيامها  
بدوافع ذاتية ثانياً . وبالرغم من حقيقة انها قد  
تمكنت من بلوغ هدف اساسي من اهدافها - الدولة  
الاسرائيلية - الا ان ذلك لم يكن تطوراً حتمياً املته  
حركة التاريخ بصورة تلقائية نتيجة لتفاعلات ذاتية  
جرت داخل البنية اليهودية ، وانما كان مظهرأ  
لحركة مفتعلة تسير باتجاه معاكس لحركة التاريخ  
العامة . كما ان ذلك لا يعني باي حال ، كون تلك  
الحركة ، حركة اصيلة . ومن جهة ثانية ، فان  
ذلك لا يعني انتفاء ضرورة البحث عنها وفهم حقيقة  
دوافع هذه الحركة فهما موضوعياً . هذا من  
جهة ، ومن جهة اخرى ، فان اضافة صفة « قومية »  
بشكل قسري عليها ، ينفي عنها حقيقة كونها  
مشروعاً استعمارياً ، يستهدف اساساً خدمة  
المصالح الاستعمارية التوسعية في المنطقة ، ومحاولة

صريحة لادامة الوجود الاستعماري وتغلغله مجدداً  
في المناطق التي ارغم على الانسحاب منها .

هذا كله ، الى جانب حملات التشويه التي  
رافقت الحركة الصهيونية ، ( والتي ما زالت  
تواكب برامج دولة اسرائيل ) ، والاهداف التي  
تبتغيها تلك الحملات ، ونتائج الدراسات التي تكاد  
تجمع على اعتبار الحركة الصهيونية حركة قومية ،  
برغم انتقارها كلياً لاي من مقومات وسمات  
وخصائص الحركات القومية ، تجعل من غير الممكن  
اعتبار تلك النتائج على انها احكام نهائية غير قابلة  
للمراجعة ، وتستدعي ، من جهة اخرى ، دراسة  
ثانية شاملة لتاريخ هذه الحركة ، ومجمل القضايا  
والظروف التي ساهمت ، بشكل او باخر ، في  
بروزها ؛ واعادة النظر في التقديرات المختلفة التي  
وضعت لتعيين هوية هذه الحركة .

حقاً . . ان الاجهزة الصهيونية كان يبمبا  
جداً ان تضفي على الحركة الصهيونية طابعا قومياً ،  
وذلك في محاولة منها لمنح الحركة الصهيونية صفة  
شرعية وحتمية تاريخية ، باعتبارها افرازاً طبيعياً  
وتلقائياً للمشكلة اليهودية ، التي تنفي كل المعطيات  
التاريخية وجود اية علاقة دابلكتيكية عضوية  
متبادلة ، او حتى علاقة ميكانيكية ، بينها وبين



الحركة الصهيونية . (١٢) ، فظالما وجد اي مؤشر قومي ، او دافع ملموس او غير ملموس ، حقيقي ام مفترض ، وان كان يفترق الى ما يحقق له وجوداً فعلياً حياً - كاندما الارض المشتركة او الثقافة المشتركة الخ . . . ، فلا بد ان يبلغ ذلك المؤشر او الدافع ، في وقت ما ، درجة من النضج تدفعه الى النضال من اجل ايجاد ما يفترق اليه من مقومات اساسية تحقق وجوده الفعلي ، وذلك كضرورة تحتمها حركة التطور التاريخي . ومن هنا ، فان مهمة ايجاد ما اصطلح عليه «وطن قومي» لليهود - وهو ما يمكن اعتباره مؤشراً ودافعاً قومياً - تفترض ضمناً وجود كيان قومي مبشر ( امة ) ، بلغ مرحلة من النضج - مرحلة تتكامل فيها البنى الطبقيه : الطبقة البورجوازية ، الطبقة البورجوازية الصغرى ، الطبقة العاملة ، والطبقة الفلاحية - مع افتراض امكانية اندماج القومات القومية الاخرى : الارض ، اللغة ، الثقافة ، التكوين النفسي المشترك والحياة الاقتصادية المشتركة ، مما يقود بالضرورة الى النضال من اجل ايجاد ارض مشتركة يحقق فوقها وحدته القومية السياسية ومن اجل ضمان

(١٢) للمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع ، انظر كتاب المشكلة اليهودية والحركة الصهيونية للكاتب .

تحقيق واحد من اهم الدوافع الاساسية لنشوء ونمو الحركات القومية - السوق الوطنية . ومن المعلوم ان انتفاء المقومات والعناصر الاساسية التي يتكون من مجموعها مفهوم القومية ، بالنسبة للواقع اليهودي - ادى الى استبدال العقيدة الدينية بكل هذه المقومات الاساسية التي يغدو مفهوم القومية الواحدة ، بدونها ، خرافة جريئة . ومن هنا كانت الدعوة من اجل احياء ( الامة اليهودية ) والى « ايقاظ الشعور لدى كل يهودي حول وضعه . . . والسعي لاقتناعه اذا كان لا يرغب في زوال الشعب اليهودي ، بان استمراره على قيد الحياة لاتضمنه سوى سبيل واحدة لاغير ، الصهيونية . . . » كما يقول الزعيم الصهيوني نوردאו . (١٣)

ونجد هذا منعكساً ايضاً في موقف ممثلي الحكومات الغربية الاستعمارية التي كان لها مصالح عميقة ومنتسعة في الشرقين الادنى والاقصى ، والتي تبنت الفكرة الصهيونية وفكرة توطين اليهود في فلسطين قبل نشوء الحركة الصهيونية . وهذا

(١٣) الدكتور اسعد رزوقي ، اسرائيل الكبرى ، منظمة التحرير

الفلسطينية ، مركز الابحاث ، بيروت ، ١٩٦٨ ، ص /

يتضح بجلاء في ما زعمه بالمرستون ، رئيس الوزراء البريطاني ( ١٧٨٤ - ١٨٦٥ ) من « ان هناك في الوقت الحاضر ( ١٨٤٠ ) فكرة قوية لدى اليهود المنتشرين في اوربا مفادها ان الوقت يقترب لامتهم كي تعود الى فلسطين ... » (١٤) وفي نفس العام ، نشرت صحيفة التايمز اللندنية مقالا بعنوان ( سوريا ونهضة اسرائيل ) ، قالت فيه : « ان اقتراح اسكان اليهود ... في وطن ابائهم وتوطينهم هناك تحت حماية خمس دول لم يعد يشكل قضية موضع مناقشة ، بل اصبح بالاحرى مادة لمناقشة جدية . » (١٥)

ان الدعوة الصهيونية اللايهودية لاسكان اليهود في فلسطين لم تقتصر على الساسة والدعاة البريطانيين ، وانما وجدت اهتماما لدى ساسة وقادة اخرين في عدد من البلدان الاوربية الغربية التي كانت لها ملامح استثمارية في الشرق الاوسط .

Avnery. Uri, Israel Without Zionists, (١٤)  
A Plea for Peace in the Middle East,  
The Macmillan Company, New York,  
1968, P. 56.

(١٥) ايغانوف . يوري ، احلروا الصهيونية ، وكالة انباء،  
نوفوستي ، موسكو ، ١٩٦٩ ، ص / ٢٢ - ٢٣ .

فالسكرتير الخاص لتابليون الثالث ارنست لاهران ( Ernest Laharanne ) يقول في كتاب له صدر عام ١٨٦٠ ، بعنوان ( المسألة الشرقية الجديدة ) : « ان اي عضو في الجنس اليهودي لا يمكن ان يتخلى عن حق شعبه الذي لاجدال فيه والاساسي بارضى اجداده دون ان يتبرا بذلك من مانيه واجداده ... ان دعوة عظيمة محجوزة لليهود : ليكونوا ممراً حياً بين القارات الثلاث ، انكم سوف تكونون حملة المدينة الاوربية التي ساهم بها جنسكم لحد بعيد . » (١٦) فيما حث الزعيم الايطالي مازيني ( ١٨٠٥ - ١٨٧٢ ) اليهود على البحث عن وطن لهم : « بدون وطن تيقون بلا اسم ، بلا علاقة مميزة ، بلا موت ولا حقوق ، ... ايها الاسرائيليون ... لاتخذعوا انفسكم بامل التحرر من ظروف اجتماعية محقة ان لم تفتحوا ، اولاً ، وطناً لانفسكم ... » (١٧) بينما نلاحظ ، من جهة

Hertzberg. Arther, The Zionist Idea, (١٦)  
A Historical Analysis and Reader,  
Meridian Books, Inc., New York,  
1960, PP. 133-134.

(١٧) الدكتور العظم ، المصدر السابق ، ص / ٩٢ - ٩٣ .  
\* مصطلح فرنسي يقصد به الاوساط المالية العليا .

أخرى ، ان بسمارك كانت لديه رغبة في توطين اليهود في المنطقة الحاذية لخط بغداد - برلين . هذه نماذج سقناها على سبيل المثال ، وليس الحصر ، تعكس اهتمام الدول الامبريالية ابان مرحلة التوسع الاستعماري بتوطين اليهود في منطقة الشرق الاوسط .

### الصهيونية والحركة القومية

لا يخفى ان الحركة الصهيونية قد استمارت رداء الحركة القومية الاوربية التي لازمت وانبثقت عن تبلور وتكامل البنية البورجوازية الراسمالية وانتصارها على الاقطاعية ، الى جانب نشوء وتكون كيان طبقي مستغل ( بفتح العين ) هو الطبقة العاملة . وبالرغم من ان ظاهرة الحركة القومية في اطارها التاريخي الطبيعي كانت ظاهرة ثورية وتقدمية ، فان الصهيونية حاولت تطبيق مفهوم القومية على مضمون مثالي وهمي لا وجود له ، ورجمي ؛ ليس فقط من ناحية فكره ، وانما حتى من ناحية وجوده الزمني . ان الحركة القومية الاوربية اذا كانت تسير باتجاه مستقبلي في مرحلة سعيها من اجل توطيد موقع البورجوازية الناشئة وضمان سوقها القومية من جهة ، وتحطيم كيان

انتهى كمرحلة تاريخية والانتقال الى مرحلة اعلى من مراحل تطور المجتمعات البشرية - المرحلة الراسمالية - فان « قومية » الصهيونية كانت على الضد من ذلك تتحرك باتجاه تراجع في مساعها من اجل العودة الى تنظيم اجتماعي باند - التنظيم القبلي الاسرائيلي - المغلق . وبطبيعة الحال فان الحركة الصهيونية حين استمارت خصائص وسمات الحركة القومية الاوربية انما فعلت ذلك من اجل كسب عطف تلك الحركة وتأييدها في سعيها من اجل الحصول على ارض تجمع فوقها ( الامة اليهودية المبعثرة ! ) في الشتات ، ومن اجل ان تنتزع لئفها فضيلة التعبير عن امان شعولية وهمية لمجموعة بشرية معينة ، بهدف الحصول على شرعية تمثيلها لتلك المجموعة واكتساب احترام العالم .

من المعروف ان الحركات القومية الاوربية تجسد ذروة النضال الطويل الذي خاضته الطبقة البورجوازية المسيحية من اجل تحقيق الانهيار الكامل للنظام الاقطاعي والاستيلاء على السلطة وتحقيق الوحدة الوطنية والقضاء على التجزئة السياسية والاقتصادية الاقطاعية التي كانت تعني في التطبيق بعثرة القوى المنتجة وتجزئة السوق الوطنية . لقد كان طبيعياً ان تبالغ الطبقة

البورجوازية المسيحية التي بدأت بالتكون منذ القرن الحادي عشر تقريبا ، مرحلة التكامل والنضج ابان القرن الثامن عشر . وكان طبيعيا ان تسمى البورجوازية المسيحية في اوروبا الغربية التي تصلب عودها وترسخت جذورها في التربة الاقطاعية ذاتها ، الى الاستيلاء على السلطة بعد تحية مثلي النظام الاقطاعي ، وذلك كي يتيسر لها السيطرة على القوى العاملة المنتجة وتوحيدها في ظل راية سياسية واحدة ، وتوحيد السوق الوطنية لتأمين تصريف منتجاتها . ومن هنا نستطيع ان نفهم الاسباب التي دفعت البرجوازية المسيحية الاوربية الى قيادة الحركات القومية التي تعبر عن ايدولوجيتها وتستهدف تحقيق مصالحها ، والى تزعم الثورات الجمهورية التي ادت الى تسلم البرجوازية في غربي القارة ، زمام السلطة . وقد يكون من المفيد ان نعيد للذهن اهم السمات التي كانت تطبع الحركات القومية الاوربية ليكون بمقدورنا تقييم الحركة الصهيونية التي يعتبرها البعض واحده من الحركات القومية الاوربية المتأخرة ، في ضوء ذلك .

لقد كانت الحركة القومية محصلة طبيعية وحمية انشوء ونمو الطبقة البرجوازية المسيحية وتطور النظام الرأسمالي في ظروف تفتت وانهبان

النظام الاقطاعي . وكان هدفها الاساسي ، كما هو معروف ، تسلم السلطة والقضاء على التبشر القومي وتوحيد امة واحدة موجوده فعلا ولها تاريخ مشترك ولغة مشتركة وثقافة مشتركة ، وتميش فوق ارض واحدة ولكنها مجزأة ، سياسيا واقتصاديا نتيجة لطبيعة النظام الاقتصادي السائد . وكان الهدف الجوهرى من وراء ذلك ، خلق قاعدة انتاجية وسوق وطنية موحده تمتص الانتاج . ان الحركة القومية كانت الحلقة النهائية من سلسلة طويلة من احداث ووقائع ساهمت ، ابتداء من القرن الحادي عشر ، في تشكيل وانماء المقومات والملامح الاولية للوجود القومي ، كولادة البرجوازية التجارية المسيحية عن طريق تحول آلاف العبيد المحررين الى تكوينات برجوازية ، ونشوء طبقة عاملة ، وتمردات الفلاحين ، وحركة استقلال المدن . كما ان الحركة القومية كانت تستند في تحقيق اهدافها الى القوى المحلية الوطنية ، التي كانت تتألف من البرجوازية الوطنية والقوى العاملة المنتجة . اذف لذلك ان الصراع الذي خاضته البرجوازية المسيحية عند بدء نشوء الحركة القومية ، كان موجها ضد كيان وطني ينتمي الى ذات القومية والى ذات العقيدة الدينية ، ولم يكن ضد كيان اجنبي ينتمي الى قومية مغايرة ، كما انه لم يكن من اجل

الموافقة على ان العقيدة اليهودية تخلع على المؤمنين بها صفة قومية ، نظراً الى ان البرجوازية اليهودية لا تنتمي الى قومية واحدة ، وانما هي كيان كوزموبوليتاني ، وبالتالي ، الا تكون قد ابحنا لانفسنا الوقوع في شرك الصهيونية التي تستمد - برغم انها حركة سياسية علمانية - كل محاججاتها ومقومات كونها « حركة قومية » من تراث غيبي ميثاق الرب لابراهيم ، ارض الميعاد ، الاسباط اليهودية ( او ما يصطلح عليه بلغة معاصرة « المنصر اسطوري : ميثاق الرب لابراهيم ، ارض الميعاد ، الاسباط اليهودية » ) ، والتوراة ! واذا كانت الحركات القومية في اوربا ، تعبيراً عن مضامين الايديولوجية البرجوازية ، فاي تعبير يمكن ان تجسده الحركة الصهيونية ، اذا تذكرنا ان البرجوازية اليهودية كانت مندغمة بالبرجوازية المسيحية ، وانها قد استطاعت ان تحقق اهدافها ومطامحها وفي مقدمتها السيطرة على القوى المنتجة ( الطبقة العاملة المسيحية ) ، وتسخيرها في ماكنة الانتاج الراسمالي ، والسيطرة على السوق الوطنية ، حيثما كانت ، ( وكذلك الاسواق الخارجية في المستعمرات ) ، بل وحتى المساهمة في الحكم في مختلف بلدان اوربا ، وانه لم يكن يوجد هناك مايشكل تهديداً لها او يعرض مصالحها للخطر سواء داخل التكوين اليهودي او الكيان المسيحي ؟

الاستحواذ على ارض تعود لقوم اخرين ، وانما من اجل توحيد نفس الارض التي نبتت فيها الحركة القومية . ثم ان « الدولة القومية » ، الهدف الاساسي للحركة القومية ، انما هي امتداد طبيعي لوجود قومي مشترك مستمر وقائم فعلا فوق ارض مشتركة ولد عليها بصورة طبيعية وبغير ما حاجة الى عملية قصيرة .

فما مدى انطباق ذلك على الحركة الصهيونية ، وهل يمكن النظر الى الصهيونية على انها تعبير ايديولوجي عن المصالح القومية للبرجوازية اليهودية ، وهل صحيح ان البرجوازية اليهودية الكبيرة هي القوى الدافعة التي تولت زمام قيادة الحركة الصهيونية بهدف لم شتات « القوى اليهودية المنتجة » المبعثرة في العالم ، وبالتالي توحيد واستغلال هذه « القوى المنتجة » وابداد سوق وطنية - اي هل كانت الحركة الصهيونية افرازاً طبيعياً لوضع مادي معين - لحاجة مادية معينة قائمة داخل بنية المؤمنين بالعقيدة اليهودية ، وهل يصح ، بالتالي ، ان نصف هذه الحركة بانها قومية ، ام انها برزت نتيجة لحاجة تقع خارج دائرة المجتمع اليهودي ؟ ولو وافقنا على انها حركة قومية ، الا يعني ذلك اننا سنجيز لانفسنا الوقوع في مازق



## موقع البرجوازية اليهودية - موقفها من الصهيونية

وقائع التاريخ تقدم لنا واقعاً تاريخياً يختلف كلية عن المنظور المتصور عن تاريخ اليهود في اوربا الغربية ، بعد عودتهم الى هذه المنطقة من القارة ، منذ اواسط القرن السابع عشر ، وعن الحركة الصهيونية . والمعطيات التاريخية تصل بنا الى نتيجة واحدة هي ان ايدولوجية البرجوازية اليهودية كانت جزء لا يتجزأ من ايدولوجية البرجوازية المسيحية . فعلى خلاف الراي السائد الذي يقول ان البرجوازية اليهودية قد تزعمت الحركة الصهيونية للوقوف بوجه البرجوازية المسيحية التي وجدت في الاولى - بعد خروجها من الفيتو - منافساً خطيراً لها - على خلاف هذا الراي تؤكد الحقائق التاريخية على ان العلاقات التي كانت تربط ما بين البورجوازيين اقوى بكثير مما يتصوره اولئك الذين تصدوا لبحث هذه المسألة . ولعل ذلك يتجلى بافصح ما يمكن في ما يقوله دافيد لانديس عن العلاقات التي تربط ما بين العناصر المالية اليهودية والمسيحية في عالم المال في اوربا القرن التاسع عشر : « لا نقاش في ان ما يشترك به ، روتشيلد وزملاؤه البروتستانت والكاثوليك في البنوك العليا(\*) ، مهما كانت عظيمة خلافتهم الدينية

وخلفياتهم العائلية ، اكثر مما يشترك به كل منهم وبعض الذين يعتقدون نفس عقيدتهم والذين يناضلون في القطاعات الادنى من عمليات التبادل الصغيرة ... » (١٨) ان حركة تحرير اليهود التي بدأت عملياً في اوربا الغربية (عدا هولندا وتوسكان) في عام ١٦٥٦ ، لم تكن ثمرة نضال خاضه اليهود من اجل الخروج من الفيتو ، وانما تمت على يد ممثلي البرجوازية المسيحية ، حين فتح كروموويل ابواب انكلترا مجدداً امام اليهود نظراً لحاجته الماسة الى اموالهم وذلك لتدعيم صراعه ضد الازدهار والتوسع الهولندي ، ومن اجل تثبيت مطامح انكلترا في البحر الابيض المتوسط الذي كان حتى ذلك الحين حكراً للتجار الايطاليين والفرنسيين ، فضلاً عن حاجته لاموالهم لمواجهة المصاعب الداخلية التي لم يكن بمقدور الحي المالي في لندن بمفرده ، ان يخفف من ضغطها . وحقائق التاريخ تؤكد انه اذا كان لدى البرجوازية اليهودية ، الكبيرة والصغيرة على السواء ، نمة احساس بالعداء ازاء جهة ما ، فان عدائها ذلك لم يكن موجهاً ضد البورجوازيه المسيحية ، وانما كان موجهاً ضد

Landes. David, S., Bankers and (١٨)  
Pashas, Heinemann, London, 1958,  
PP. 32-33.

(\*) الدكتور رزوق ، المصدر السابق ، ص ٤٤ .

اعطاكم الحق لان تعملوا هذا ، اي قضية انسانية تخدمون ، وعلى اي حال ، من انتم . لانه ليس هناك مكان تعطون فيه حقوقكم كاملة او حتى تعتبرون فيه مواطنين عاديين . وانتم الذين تقدرون ان تشدوا احزمة ما يقرب من ثلاثة ملايين من الجنود . انتم وسناديق اموالكم يجب ان تقام الحراسة حولكم خوفا عليكم من اناس لا يعرفون الحقيقة بعد . وما تزال ثروتكم الملعونة تزداد انها تزداد بسرعة تفوق ازدياد الثروات القومية للبلدان التي انتم فيها ، لذلك فان هذه الزيادة انما هي على حساب ازدهار الامة ، حتى لو كنتم انتم انفسكم احسن الناس خلقا .

لهذا السبب سوف لا تقبل الدولة اليهودية بثروتكم المخيفة هذه لانها تحد من حريتنا الاقتصادية والسياسية حتى ولو ذهبتم معنا . هل تفهموننى ايها السادة ؟ وكيف نوقف ازدياد ثروتكم ونحن نعمل على ازدياد ثروة كل فرد ؟ هل نضمركم قوانين خاصة تقف ضدكم ؟ بالنكران الجميل وللسخف اذا ساعدتمونا ! ايها السادة ، اذا لم تذهبوا معنا قد نضطر ان نعلن خروجكم على القانون ، ونمنعكم من دخول بلادنا ، كما في فرنسا

الحركة الصهيونية نفسها ، وقيادتها الحقيقية المتمثلة بحفنة من المثقفين المنحدرين عموما من البرجوازية الصغيرة المنفلتة من الغيتو الشرقي . . لقد كان عداء البورجوازية اليهودية الغربية للحركة الصهيونية ومشروعها بانشاء وطن قومي في فلسطين وكذلك للمهاجرين اليهود من اوربا الشرقية ، عميقا الى درجة جعلت هرتزل نفسه يعلن دونما موارد ، ان هناك « لاسامية يهودية » ! يقول هرتزل : « وهكذا ، فان العديد من اصداق اليهود الظاهرين يشتون في النهاية ، وبعد التمحيس عن كذب ، انهم لا يزيدون عن كونهم اعداء للسامية من اصل يهودي في ارضية خيرية . » (١٩)

ولقاء مزيد من الاضواء على موقف البورجوازية اليهودية من الحركة الصهيونية ، وموقف هذه من الاولى ؛ ولكي نعيد بعضا من حقائق التاريخ الى موضعها الحقيقي ، فقد يكون من المفيد ان نترك المنبر لهرتزل نفسه ، ليجدنا عن الامر بما يكشف عن العلاقة بين الجانبين :

في رسالة كتبها الى روثيلد في ١٨٩٥/٦/١٥ ، تجاوز هرتزل كل حدود الجاملات ، حيث راح يهدد المليونير اليهودي قائلا : « من

(١٩) هرتزبرغ ، المصدر السابق ، ص / ٢١٢ .

حيث يمنع دخول المطالبين بالعرش وجميعهم وراث  
عائلات فرنسية . « (٢٠)

وفي ١٨٩٥/٧/٢٧ ، كتب الى هيرش الذي  
كان قد انشا مستعمرة يهودية خيرية في الارجننتين:  
« ان الاسطورة التي يتناقلها الناس عنك خطأ  
واضح . انت تلهي بقضية اليهود ، وكما تنزل  
خيولك للسباق تبعث باليهود الى الهجرة ، وهذا  
ما اثور عليه بشدة ، ليس اليهودي لعبة تلهي  
بها . » (٢١)

وفي المؤتمر الذي عقد في ١٨٩٥/٨/١٨ في  
ميونيخ اتخذ المؤتمر قراراً بمقاطعة روتشيلد :  
« لقد اتفقنا على ان لا يصل الخطاب الى آل  
روتشيلد ، لانهم حقرون ، اذلاء مجنون  
لانفسهم . » (٢٢)

في ١٨٩٦/١١/٧ التى هرتزل خطاباً في فينا .  
وقد كتب عن خطابه ذاك مايلي : « تكلمت بشكل

---

(٢٠) يوميات هرتزل ، ترجمة هدا شعبان صايغ ، مركز  
الابحاث ، منظمة التحرير الفلسطينية ، المؤسسة العربية  
للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٢ ، ص / ١١٢ .

(٢١) نفس المصدر ، ص / ١١٦ .

(٢٢) نفس المصدر ، ص / ١٢٢ .

خاص معارضاً التدبير الروسي - الفرنسي المقترح  
للاقتصاد التركي ، لانه سيقطع طريقنا الى فلسطين  
- وسوف ارسل هذا المقطع من خطابي الى دهاس  
في لندن ، الجملة الرئيسية فيه : « ان رجال  
المصارف اليهود الكبار الذين سيشاركون بهذا  
المشروع ، دون ان يراعوا الالم فقراء اليهود ودون  
ان يفتنموا الفرصة ليسهموا في حل المسألة  
اليهودية ، سوف يتعرضون لمسؤولية خطيرة جداً .  
وفي الوقت نفسه ادعو دهاس ليقوم بحملة ضد  
المشروع في انجلترا واميركة . ويجب ان يدعو الى  
اجتماع جماهيري احتجاجي في الطرف الشرقي  
(لندن) . كما اني ادعو الى تأسيس صندوق قومي  
يحقق استقلالنا عن المصرفين الكبار . » (٢٣)

وفي ١٨٩٨/٢/٢٢ كتب الى نورداو حول  
البنك اليهودي قائلاً : « يجب ان نخلقه بمساعدة  
الرؤوس الكبيرة او بالرغم عنهم ... اذا هم تخلوا  
عن الحركة الصهيونية ، سوف ينقلب عليهم  
وينتقم منهم ... » (٢٤)

وحول الموضوع ذاته ، كتب في ١٨٩٨/٤/٢٢

---

(٢٣) نفس المصدر ، ص / ٤٦ - ٤٧ .

(٢٤) نفس المصدر ، ص / ٩٢ .

الغربي من لندن يخافون من ان نحملهم على الذهب  
معنا ، لذلك فهم يخطوننا ويهزاون بنا في احاديثهم  
وجرائدهم ... « (٢٨)

وعلى صفحة ( ١٢٨ ) يقول في رسالة بعث بها  
الى وزير الدولة الالمانى بولو بعد ان رفض القيصر  
مقابلة هرتزل : « ... ان المعلومات التي وصلتكم  
من اعدائنا ، خاصة اعدائنا اليهود ، هي غير  
صحيحة . » (٢٩)

وبتاريخ ١٩٠٠/٢/٢٨ ، قال في رسالة بعث  
بها الى رئيس الوزراء النمساوي : « تجابه الحركة  
الصهيونية مقاومة اثرياء اليهود . » (٣٠)

في حزيران ١٩٠٢ : اوضح ان لورد روتشيلد  
يعارض دعوة هرتزل للمؤتمر « ... لانه يعتقد  
بانى زعيم شعب وصاحب مشاكل . » (٣١) ثم  
يقول : « اني بحاجة الى ال روتشيلد . وماذا اذا  
رفضوا ؟ سيلاقون عواقب ذلك . » (٣٢)

(٢٨) نفس المصدر ، ص / ١٢٧ .

(٢٩) نفس المصدر ، ص / ١٢٨ - ١٢٩ .

(٣٠) نفس المصدر ، ص / ١٥٩ .

(٣١) نفس المصدر ، ص / ٢١٦ .

(٣٢) نفس المصدر ، ص / ٤١٢ .

الى نورداو : « وبحسب التقارير التي ستاتي من  
جميع انحاء العالم ، ستكون هذه النواة كافية ،  
وعلى مثل هذا الاساس سنجبر كبار اصحاب  
البنوك ان ينضموا الينا ، والا فسوف نسير وحدنا  
ونحارب هؤلاء الكلاب . » (٣٥)

وعلى الصفحة ( ٦١٣ ) من مذكراته ، يقول  
هرتزل : « وعلى كل حال فان السفلة اصحاب  
الاموال لن يستطيعوا ان يتصرفوا كما فعلوا حتى  
الان . » (٣٦)

ومرة اخرى ، وفي معرض حديثه عن بنك  
الاستعمار اليهودي على صفحة ( ٧٨٧ ) من  
مذكراته ، يعلن هرتزل : « فاننا حتى الان لم نؤمن  
بنكا واحدا يقبل ان يكون وكيلا للاشتراك وهناك  
مقاطعة تامة من قبل الاوساط اليهودية المتمولة .  
على اننا اتفقنا جميعا انه اذا لم تاتنا مساعدة من  
القيصر او اللدوق الكبير فسوف نقع في مازق . » (٣٧)

وفي رسالة بعث بها الى قيصر المانيا قال  
هرتزل : « ... ان كثيرين من اغنياء يهود الجانب

(٣٥) نفس المصدر ، ص / ٩٥ .

(٣٦) نفس المصدر ، ص / ١٠٨ .

(٣٧) نفس المصدر ، ص / ١٢٤ .

ويمضي هرتزل في تسليط الضوء على العداء الذي يضره ائرياء اليهود لمشروعه فيقول : « اما كبار اليهود فسوف يفشلون المشروع برفضهم ، ومن المؤكد انهم سيكونون اول من سيدفع ثمن ذلك . » (٢٢٢)

ويفكر هرتزل في وضع خطة لمحاربة آل روتشيلد ، فيقول : « الطريقة الوحيدة هي ان يلتحم سفار اصحاب البنوك معاً ، ويؤلفوا معاً قوة مالية هائلة ونحارب ال روتشيلد فنسحبهم الى جانبنا او نخطمهم . » (٢٢٣)

ويمضي هرتزل في هجومه العنيف على اثنياء اليهود ، حيث يقول : « ان هؤلاء الاغنياء يريدوننا ان نتجمد . سيكون انتقامي منهم فظيماً . قد اعلن المقاطعة في هذا المؤتمر . » (٢٢٤) ويقول ايضاً : « اذا انتقمنا يوماً من هؤلاء الكبار من اصحاب البنوك فسوف تكون على حق ... »

« اخبرته ( جاستر ) بالحقائق هذه ... واريد ان اتحدث معه بخصوص الحملة التي سنشنها ضد اصحاب البنوك الكبار . »

(٢٢٤) نفس المصدر ، ص / ٤٤٨ .

« ان الاغنياء ( والعلماء في اسرائيل ) يتحملون مسؤولية مخيفة بتخليهم عنى ... » (٢٢٤)

ومرة اخرى يفجر حقه على اصحاب الملايين من اليهود ، حيث يقول بعد ان تراجع اثنان من اصحاب البنوك عن تأييدهما للصباينة : « ابرق ولفسن يخبرني ان سليجمان وماركس صاحبي البنك اللذين كان منتظراً ان ياتيا الى كولون لحضور مؤتمر البنك قد سجا قبولهما . هذه الحيلة الوسخة تستوجب اعادة النظر في كل شيء . سابدأ مشروع البنك في المؤتمر ، وهذا سيخلصنا من الاعتماد على اصحاب البنوك ابناء الحرام . » (٢٢٥)

وخلال المساعي والمحاولات التي كان يجريها هرتزل من اجل اقناع روتشيلد بتقديم المساعدة لمخططة الاقتصادي السياسي للحصول على فلسطين ، كتب الزعيم الصهيوني في ٢٠/١/١٩٠٢ ، موضحاً في معرض تقديمه للمخطط : ان « على روتشيلد ان يساعد لايهودي ولكن كانجليزي . » (٢٢٦)

(٢٢٤) نفس المصدر ، ص / ٤٤٧ .

(٢٢٥) نفس المصدر ، ص / ٤٤٧ - ٤٤٨ .

(٢٢٦) نفس المصدر ، ص / ٨٦ .



وفي رسالة كتبها في ١١/١٢/١٨٩٧ ، الى نوردوا ، قال هرتزل في معرض حديثه عن اثرياء اليهود لحثهم على الاسهام في البنك اليهودي : « وكل ما في الامر هو ان يكون لهؤلاء الناس مخيلة تمكنهم من رؤية ما سيكون خلال ثلاثة او اربعة اشهر من الان ، او اي شيء اخر تسمح لهم مخيلتهم النائمة على اكياس المال ان يروه . . . اذا حاولوا اثارة الراي او رفضونا بشكل مضر فسوف اثير ضدهم حرب عصابات خاصة اذا عرفت انك تقف الى جانبي في هذا ، سننتقم متى جاء الوقت .

ولكن ربما لاياتي مثل هذا الوقت الذي به يرفضونا وانا افضل ان لاياتي لاسباب سياسية ، مع اني اعتبرهم طفيليين وانا حاقد عليهم من كل قلبي . « (٢٧)

ولايتردد هرتزل في اطلاق ما يروق له من نعوت على اثرياء اليهود وهو يفجر حقدده عليهم : « ان السافلين من امثال هرمان لاندو لايزالون يسيئون الينا بامر من سافلين اخرين امثال مونتاجو والحاخام ادلر . « (٢٨)

(٢٧) نفس المصدر ، ص / ٩١ - ٩٢ .

(٢٨) نفس المصدر ، ص / ٤٥ .

اما وايزمان فيقول في هذا الصدد : « ان الطواغيت اليهود ، مع استثناءات قليلة جداً ، كانوا يناوئون الحركة الصهيونية بمرارة . « (٢٩)

هذه التصريحات لاترك مجالاً للشك في ان وداً مفقوداً كان يميز العلاقة الحقيقية القائمة بين البورجوازية اليهودية والحركة الصهيونية وبالرغم من الاهمية الفائقة لمثل هذه الادلة التي تكشف طبيعة العلاقات بين الطرفين فساكتفي بهذا القدر منها خشية ان يتسرب السام الى نفس القارىء .

### الواقع اليهودي بعد انهيار الغيتو الغربي

وعلى اية حال ، ولغرض اضاءة الجانب الاخر من الصورة ، لا بد ان نتعرف على عجل ، على واقع الظروف الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي عاش في ظلها اليهود في بلدان اوربا الغربية منذ اواسط القرن السابع عشر - تلك الظروف التي تعتبر سبباً جوهرياً اكثر من كاف ومعقول كي تتخذ البورجوازية اليهودية الغربية ، الكبيرة منها

Weizmann. Chaim, Trial And Error, (٢٩)  
Hamish Hamilton, London, 2nd.  
Imp., 1949, P. 40.

سوق وطنيه خاصة بها . وكان هرتزل قد ادعى قبل ذلك ، ان الاسلامية هي « . . . ثمرة تحرير اليهود » من الفيتو ، حيث قال : « ففى الفيتو تطورنا بشكل ملحوظ الى شعب بورجوازي وخرجنا من الفيتو منافساً غير اعتيادي للطبقة الوسطى . » (٤١)

هل يتفق هذا الراي مع حقيقة الامر ؟  
قبل الرد على هذا السؤال ، يبدو من المهم التعميب على ملاحظة هرتزل هذه .

ان تمحيصاً دقيقاً لواقع المجموعة اليهودية ، بعد حركة تحرير اليهود في اي بلد ، يبين لنا ان التركيب الاجتماعي لليهود والذي تقرره الوظيفة الاقتصادية ، قد بقي ، بصورة اساسية ، مثلما كان عليه داخل الفيتو ، في عهد النظام الاقطاعي ؛ حيث ان اليهود ظلوا يمارسون نفس النشاطات الاقتصادية - التعامل في سوق المال والتجارة . كل ما في الامر هو ان تراكم الثروات لديهم بصورة مستمرة عبر قرون طويلة من الممارسة في هذا المجال قد ادى الى ازدياد الغنى بشكل اسطوري لدى فئة معينة في الوسط اليهودي هي الشريحة

(٤١) هرتزبرغ ، المصدر السابق ، ص / ٢١٨ .

والصغيرة على السواء موقف المعارض ، ليس فقط من الحركة الصهيونية وقيادتها ، وانما حتى من اليهود الشرقيين الذين بدأوا يتدفقون من اقطار اوربا الشرقية ، بعد احداث ١٨٨١ في روسيا ، مما دفع اثرياء اليهود الغربيين الى تنظيم حملات خيرية لتهجيرهم الى امريكا اللاتينية وفلسطين ، وذلك للتخلص مما يمكن ان تأتي به من اضرار محتملة ، تلك الكتلة البشرية العتيقة من اليهود القادمين من عالم مازال يعيش في ظل الاقطاع ، والذين كانوا ، كما يقول دويتشر ، الكاتب اليهودي : « مازالوا يقومون بنوع من التجارة البدائية كالتى مارسها تجار القرنين السادس والسابع عشر ، وبقية طقوسهم الدينية وشعائهم قديمه وتنطوي على مفارقات تاريخية . » (٤٠)

اشرنا سابقاً الى ذلك الراي الذي يزعم ان البورجوازية اليهودية دخلت في صراع تنافسي حاد مع البورجوازية المسيحية اثر خروجها من الفيتو مما دفعها اخيراً الى تنظيم الحركة الصهيونية ، وذلك بهدف الخلاص من مزاحمتها عن طريق توفير

(٤٠) دويتشر . اسحاق ، اليهودي الاليهودي ، ترجمة ماهر كياي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧١ ، ص / ٤٢ .

على غير ما يمتنى هرتزل والمنظرون والمؤرخون  
الصهاينة ، فان التاريخ ليس من همه ان يشوه  
الوقائع مثلما يفعل قادة الحركة الصهيونية .

قد يكون حقاً .. ان موسى ، كما تروي  
الاساطير ، هو الذي قاد الخروج من مصر قبل ان  
ياتي المسيح . غير ان الخروج من الفيتو قد قاده  
البورجوازية المسيحية نفسها . ومن هنا فانه يبدو  
من غير المعقول ان تحمل البورجوازية المسيحية  
المعاول لتهديم جدران الفيتو ، لو كان ( الخروج  
الجديد ) سيجلب لها المصائب .

ولكي تكون الصورة واضحة ومقنعة ، لا بد  
من البحث عن اصول الاشياء ، ولا بد من القاء شيء  
من الضوء بشكل عاجل على بعض الحقائق المرتبطة  
بنشوء وتنامي ( الطبقة ) البورجوازية اليهودية ،  
وعلاقتها بالبورجوازية المسيحية في غرب اوربا .

من المعروف ان البورجوازية اليهودية الكبيرة  
لم تولد في مجتمع يهودي صرف ، وانما ولدت  
ونشأت وتفتت في رحم المجتمع المسيحي ، الذي  
ولدت فيه الطبقة البورجوازية المسيحية ايضا .  
ومن المهم ان نلاحظ هنا ان نشوء واكتمال  
البورجوازية اليهودية ، لم يحدث نتيجة لتراكم  
الثروات لديها عن طريق اداء وظيفة اقتصادية

العليا او ما يعرف بالبورجوازية اليهودية الكبيرة او  
الراسمالية اليهودية . كما ادى من ناحية اخرى  
الى تأكيد التباين بين هذه الشريحة وبين الشرائح  
الاخرى التي ازدادت ، هي ايضا ، غنى ، والتي  
تمارس نفس النشاطات الاقتصادية ولكن على  
نطاق اضيق ، والتي تعرف عموماً بالبورجوازية  
الصغيرة التي يدخل في تركيبها الى جانب مختلف  
انواع المرابين والمولين والتجار الصغار ، الكسة  
والباعة والحرفيون والموظفون الخ .. وعند قيام  
الثورة الصناعية ، ومع تطور وسائل الانتاج  
وانتشار اساليب تكنولوجيا جديدة ، مما فتح  
فرصاً جديدة امام راس المال المالي ، فان راس المال  
اليهودي ، برغم انه اسهم بشكل فعال في حث  
وتطوير الانتاج الراسمالي ، قد اندفع بصورة  
رئيسية نحو ميدان عمليات التحويل الضخمة  
والمضاربات والسندات الحكومية والقروض  
والاستثمارات المالية . وهكذا .. ومثلما كان  
اليهود يتألفون بصورة اساسية من بورجوازية  
كبيرة وبورجوازية صغيرة في عهد الفيتو ، فقد ظلوا  
محتفظين بنفس هذا التركيب الاقتصادي -  
الاجتماعي ، بعد خروجهم من الفيتو . وعلى اية  
حال ، لنعد الى الظروف الاقتصادية التي كانت  
تكتنف الوجود اليهودي في اوربا الغربية .

والتجار الخ ... اليهود بمختلف فئاتهم وعلى  
إبواب درجاتهم ، أصبحوا مصدر خطر جسيم  
عليها ، قد يمرقن نموها بل وحتى انه يمكن أن  
يقضي عليها قبل ان يشتد عودها ويتكامل نموها  
الى درجة تمكنها من الهيمنة اقتصادياً على المجتمع .  
في هذه المرحلة كان من الضروري ان تتخلص  
البورجوازية المسيحية المتنامية من ذلك المنافس  
الخطير الذي تمرس عبر قرون طويلة من التجارب  
في شؤون التجارة والمال ، ذلك المجال الذي كان ما  
يزال حقلاً جديداً بالنسبة لها . فكان الاضطهاد  
الذي كثيراً ما كان يتوج بطرد اليهود وسلبهم اموالهم  
في بلد بعد اخر . وقد استمرت هذه الفترة فيما بين  
القرنين الثاني عشر تقريباً والسابع عشر . غير ان  
تكامل نمو البورجوازية المسيحية ، وبروزها كطبقة  
متميزة ومتماكة ، وبعد هيمنتها على الاقتصاد  
واستيلائها على السلطة بعد تفتت وانهار النظام  
الاقطاعي ، ومع اشتداد التنافس بين البورجوازيات  
الغربية ، ونتيجة لازدياد حاجة البورجوازية  
المسيحية الى ما يدعها مالياً ويعزز مكانتها  
الاقتصادية - الاجتماعية ، سواء على الصعيد  
الداخلي او الخارجي - ان هذا كله دفع بالطبقة  
البورجوازية المسيحية التي بدأت تتسهم السلطة  
في بلد بعد اخر ، الى ان تفتح ابواب بلدانها مجدداً

انتاجية ، وانما عن طريق ممارسة وظيفة اقتصادية  
ذات طبيعة خدمية وان كانت استغلالية ، وغير  
منتجة - التعامل في سوق المال والتجارة . وكانت  
الخدمات التي تقوم بها ، تقدم ، بشكل اساسي ،  
لمختلف الفئات الاجتماعية وفي مقدمتها الطبقة  
الارستقراطية الحاكمة في مختلف بلدان اوربا ،  
منذ هبوط اول المهاجرين اليهود ، بضعة قرون  
قبل الميلاد ، على شواطئ اوربا . واستمر  
اليهود في اداء نفس الوظيفة الاقتصادية بعد انتشار  
المسيحية في اوربا . لقد ظل الممولون والمقرضون  
والتجار والمرابون والصارفة والباعة الخ ...  
اليهود يؤدون خدماتهم للمجتمع المسيحي طيلة  
تلك الفترة التي لم تكن الطبقة البورجوازية  
المسيحية قد تكاملت فيها بعد . وطيلة الفترة التي  
ساد فيها النظام الاقطاعي في اوربا الغربية ، لم  
يكن من مصلحة اية جهة ان تشعر اليهود بانهم  
ضيوف ثقلاء . غير انه مع تزايد نمو وتوسع  
البورجوازية المسيحية التجارية ، واتخاذ حركة  
نموها مساراً يقود نحو تشكل كيان اجتماعي  
مترايط واضح المعالم ومحدد الابعاد وله وظيفه  
اقتصادية معينة ومصالح محددة ، اي طبقة  
اجتماعية - اقتصادية متبلورة - اخذت  
البورجوازية المسيحية تشعر ان الممولين والمقرضين

امام اليهود . من هنا نستطيع ان نتبين ان البورجوازية المسيحية التي تهرست هي الاخرى طيلة ما يزيد على اربعة قرون في فنون التجارة والصرفة والمال ، في غياب التاجر والممول اليهودي المبريق ، لم تفتح ابواب بلدانها مجدداً امام اليهود ، بدافع الفضيلة ، وانما لحاجة غير قابلة للتأجيل . لقد وجدت البورجوازية المسيحية نفسها على ابواب مرحلة التوسع الاستعماري في اعقاب حركة الاستكشافات الجغرافية ، وازدهار الرأسمالية التجارية ، وهي تسير سيراً حثيثاً نحو مرحلة الثورة الصناعية والتطور العلمي في نفس الوقت الذي كانت تعاني فيه من اثار الدمار الاقتصادي الذي حل بقرى القارة بسبب الحروب والصدمات المستمرة التي سادت هذا الجزء من اوربا منذ اواسط القرن السادس عشر . لقد ادركت البورجوازية المسيحية في مختلف بلدان القاره ان المتعد الوحيد الذي يستطيع ان يمد لها يد الرحمة في صراعها ضد بعضها البعض ومن اجل التوسع الاستعماري انما هو الممول ، بصرف النظر عن انتمائه القومي او الديني . ولعل ادراكها لواقع ان الانتماء الديني قد تراجع عن اهميته وتأثيره السابقين ، وان الدين لم يعد قضية تثير القلق ، قد جاء نتيجة الى ان البورجوازية المسيحية قد

بلغت ، هي نفسها ، درجة من القوة الاقتصادية والمالية والثقة بالنفس - مما ادى الى تلاشي مخاوفها السابقة من المنافين القدامى - الممولين والتجار والمرابين اليهود . وفي هذا يحسن بنا ان نعود الى ما قاله توينبي :

« ... ان المثلين المحليين للبورجوازية غير اليهودية التي اصبحت الان ، راسخة الجذور في الاقطار الغربية ، قد غدوا سادة متمكنين من الفنون الاقتصادية اليهودية الى درجة ان مخاوفهم التقليدية من الرضوخ امام المنافسة اليهودية لم تعد تكرههم على ان يضعوا فرصة تجنيد القدرة اليهودية لخدمة اقتصادهم الوطني . » (٢٢) ومن هنا ، فقد تزعمت البورجوازية المسيحية الاوربية الغربية نفسها حملة تحرير اليهود بدافع من حاجتها الاقتصادية والمالية ، وكذلك بدافع من الافكار والنظريات الفلسفية والعلمية الجديدة التي سادت غربي القارة ، والتي كانت تنصب اساساً على تحرير الفكر الانساني وتحرير الفرد باعتباره الوحدة الاساسية في المجتمع البورجوازي . وابتداء

Toynbee. Arnold J., A Study of His- (٢٢)  
tory, Oxford University Press, Lon-  
don, 1963, P. 285.

ميكافيلي . « (٢) » . من خلال هذا نستطيع ان ندرك الاهمية الكبرى التي استطاع ان ينتحلها المولون .. ومن خلاله ايضا نستطيع ان نفسر ظاهرة الجزر التي بدأت تعترى ما يعرف بالمشكلة اليهودية منذ اواسط القرن السابع عشر . ومنذ ذلك العهد فصاعداً ، بدأ اليهود يحتلون مراكز حيوية مهيمنة ، متزايدة النفوذ في الميادين المالية والتجارية والصرفية في البلدان التي سبق ان طردوا منها . فمثلاً ، حين كانت تطرح مسألة تعيين مصرفي خاص بالبلاط ، في برلين ، كان بسمارك يصر على انه لا يصلح لهذه المهمة غير مصرفي يهودي . فيتم اختيار واحد من اسرة بلايخروده (Bleichröder) (٣) . بل وحتى ان الامور تطورت الى مدى ان الاسر اليهودية المالية كانت تشكل « سلالات » مالية تسيطر سيطرة تكاد تكون كلية على الحياة الاقتصادية والمالية والصناعية في اوربا . « وكان اشهر الامثلة على ذلك بالطبع ، بيت روتشيلد ، تلك السلالة التي بدأت في

Tawney. Richard Henry, Religion and (٣)  
the Rise of Capitalism, Penguin  
Books, London, 9th Edition, 1969,  
P. 87-88.

(٤) لانسي ، المصدر السابق ، ص / ١٩ - هامش ( ٢ ) .

من ١٦٥٦ حتى ١٨٧١ ، كانت جذران الفيتسو تنهاوى ، في بلد بعد اخر ، في اوربا الغربية . وغدا اليهود مواطنين كاملين يتمتعون بكل حقوق المواطنه ولم يعد هناك من يريد ان يتصور ان الانسان اليهودي شخص غير مرغوب فيه . العكس كان صحيحاً . فقد كانت البورجوازية اليهودية الاوربية تعيش عيداً اخضر ، وهي تتربع في قمة المجتمع البورجوازي الغربي وتشكل جزء حساساً وفعالاً ، لا يتجزأ ، من الارستقراطية الاوربية . وما قاله ريتشارد هنري تاووني ، المفكر الاقتصادي يمكن ان يلقي ضوء ساطعاً على المكانة الرفيعة التي كان يحتلها اليهود في المجتمع الاوربي ، في تلك الحقبة : « ... ولحكام المال جاء عاجلاً ام آجلاً ، جميع الدول .... قد يكتب الكتاب ان المسيح الجديد هو الامير ، [ وقد يقول ] المصلحون ان الامير هو البابا . ولكن وراء الامير والبابا على السواء ، يقف في الملاذ الاخير ، ممولا دون تحيز ، هنري الثامن ، وادوارد السادس ، واليزابيث ، وفرانسيس ، وجارلس ، وفيليب ، مصرفي الماني صغير له فروع في كل عاصمة في اوربا ، يلعب في عالم المال دور قائد المرتزقة في الحرب ، ويمثل في المجال الاقتصادي الاخلاقية المجسدة في سياسة أمير

(Erlanger) وايرلانغر (Speyers) وغولدشمت (Goldschmidt) ، وشوشتر (Schuster) وسليمان (Seligman)

من بين آخرين . (٤٦) ، لقد شكلوا مجموعة استثنائية من المولين المغامرين المدوانيين الذين كانوا بين قادة اسواق النقد ورأس المال آبان القرن الماضي والذين استمروا في بعض الحالات في امتلاك ثروة عظيمة حتى هذا اليوم . « (٤٧) » .

لقد كان من الطبيعي ان تشاهد فضائل المولين اليهود عند كل منعطف من منعطفات المال والتجارة والصناعة في اوربا . ولم يكن امرا مثيرا للاستغراب ان تقوم اسر يهودية بتحويل نفقات بعض الحروب ، على فخامة مثل هذه النفقات . اسرة روتشيلد مثلا قامت بامداد جيوش ويلتفتون (Wellington) بما تحتاجه من اموال في حربها ضد نابليون ، لتصبح ببساطة « . . . اعظم قوة في الشؤون المالية الدولية بضماتها بعض الديون الناجمة عن حروب نابليون . » (٤٨) ويذكر الكاتب

(٤٦) من الاسر اليهودية المالية المشهورة نذكر اسرة مندلسون ، وباينفوس وشتاير وساسون ، وهيريس .

(٤٧) لاندس ، نفس المصدر ، ص / ١٧ .

(٤٨) لاندس ، نفس المصدر ، ص / ١٢ .

فرانكفورت ، واستقرت ابان العقدين الاولين من القرن التاسع عشر في اسواق اوربا المالية العظيمة ، وقد بسطت سيادتها بين ١٨٢٠ - ١٨٤٨ بوصفها ، الملوك الذين لا يجادل فيهم في عالم المال . « (٤٥) » ويقول دافيد لاندس ، الاستاذ المشارك في جامعة كولومبيا ، في بحثه القيم عن الحياة والبيوتات المالية في بلدان اوربا القرن التاسع ، وعن العلاقات الخفية التي كانت تتحكم في هذا المضمار : « وعلى اية حال ، فان اشدها خصبا هي المانيا ، التي كانت ماوى عدد مرموق من السلالات الدولية المصرفية القوية التي كان معظمها يهودي . فقد كانت هناك [ اسر ] آل اوبنهايم ( The Oppenheims ) ، في كولون ، آل بامبرغر ( The Bambergers ) في مينز ( Mainz ) ، وآل هابرز ( Habers ) في كارلسروهة ، وآل هاينه ( Heine ) ووربرغ ( Warburg ) في هامبورغ ، وقبل كل هؤلاء ، فصيلة فرانكفورت التي تضم بالاضافة الى آل روتشيلد ، آل شتيرون ( Stern ) وشبايرز

(٤٥) لاندس ، المصدر السابق ، ص / ١٦ - ١٧ . وملاحظة عابرة فان اسرة روتشيلد كانت تسيطر على الحياة المالية والاقتصادية في اهم العواصم والمراكز الاوربية ، مثل لندن ، فينا ، باريس ، فرانكفورت الخ .

يكون ميماً هنا ان نذكر انه مثلما استطاع المولون اليهود من تجميع ثروات خيالية في اوربا الاقطاعية من خلال الخدمات الاستغلالية المالية التي كانوا يقدمونها للمسيحيين ، فان البورجوازية اليهودية في اوربا الصناعية ، استطاعت ان تضاعف ثرواتها عن طريق استغلال الطبقة العاملة ( المسيحية ) ، نظراً الى انه لم تكن قد تشكلت بعد طبقة عاملة يهودية . كما انها استطاعت ، من جهة اخرى ، عن طريق الترابط الوثيق بين رأس المال اليهودي ورأس المال المسيحي ، من السيطرة على السوق المحلية الوطنية حيثما كانت ، بالإضافة الى انها استطاعت ان تسيطر عليها على اسواق المستعمرات في آسيا وافريقيا ، فيما بعد ، من خلال حركات الغزو الاستعمارية ، وعن طريق جيوش تتألف غالبيتها العظمى من جنود مسيحيين .

من خلال هذا نستطيع ان نتوصل الى نتيجة واحدة ، هي ان مصالح ومصر البورجوازية اليهودية في اوربا الغربية كانت مرتبطة ارتباطاً عضوياً غير قابل للانفصام بمصالح ومصر البورجوازية المسيحية . ولعل ما هو اكبر مغزى ، « ان العديد من المولين اليهود بصورة خاصة ، ضحوا بمقدراتهم من اجل مظلماهم الاجتماعية ،

اليهودي الامريكى ، غرينبرغ ، (Greenberg) الذي يذرف دموعاً غزيرة على وضع اليهود في اوربا، بالرغم من محاولته الواضحة لان يكون موضوعياً يذكر انه : « . . . حينما كان فردريك الكبير يحتاج الى الاموال ، فانه كان يعود دوماً اليهم [ اليهود ] ، طالباً المساعدة . فمثلاً قام اليهود بتمويل حرب السنوات السبع ، وقد جمع بعضهم ثروات ضخمة . » (٩) ومن ناحية اخرى فقد تطوعت اسرة مندلسون لتمويل السندات الروسية للمستثمرين الالمان . وبعد الثورة الصناعية لم يدخر البورجوازيون اليهود وسعاً في محاولة انماء وتكديس الثروات الاسطورية بشتى الطرق وفي شتى المجالات : المناجم ، التعدين ، المصاهر ، السكك الحديدية ، مصانع الانتاج الحربي والمدني ، والمضاربات المالية ، القروض وكل مجال تستطيع ان تمتد اليه ايديهم لصناعة المال . ويعترف غرينبرغ بان ما يزيد على نصف الانوال في مصانع نسيج الحرير ، و ٦٠٪ من انتاج الحرير المخزون في بروسيا ، كان مركزاً بيد اليهود . (٥٠) . وقد

Greenberg, Louis, The Jews In Russia, (١٩)  
The Struggle For Imancipation,  
Ams Press Inc., 1973, Vol., I, P. 15.

(٥٠) غرينبرغ ، نفس المصدر ، ص / ١٥ .



الرجمية ، مستغلة ظروف الازمة الاقتصادية التي نشبت في البلاد بسبب موجة المضاربات التي جاءت نتيجة للأنتماش الاقتصادي الذي اعتب التمويلات الفرنسية لالمانيا بعد الحرب الألمانية - الفرنسية ( ١٨٧٠ - ١٨٧١ ) ، والتي ، اي موجة المضاربات ، كان يقف وراءها الممولون اليهود . اما بالنسبة لروسيا ، فهذا ما سنعود اليه فيما بعد . وكان من جهة اخرى ، وبالنسبة لفرنسا ، جزء من الهجمة العامة التي تعرضت لها قضية الديمقراطية بكاملها . ولا بد ان البورجوازية اليهودية كانت قد قرأت بيان الروائي الفرنسي الكبير اميل زولا الموسوم بـ « اني اتهم » ، الذي اصدره بعد اربع سنوات من إلقاء الضابط « درايفوس » سجيناً في جزيرة الشيطان - ذلك البيان الذي ادى الى سلسلة من المحاكمات والاحداث التي هزت اسس النظام الفرنسي ، حيث هب نصف الامة الفرنسية مدافعا عن ضابط يهودي صغير « ... كان قد قطع كل الصلات التي تربطه بدين اجداده . » (٥٢) ولكنه بريء اخيراً ؛ فيما فقد الضابط الفرنسي ( المسيحي ) الذي لفق التهمة ضده ، شرفه

(٥٢) ستيوارت . ديموند ، هرتزل ، ترجمة فوزي وفاء وابراهيم منصور ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت (١٩٧٢) ، ص / ١٩٥ .

وفعلوا كل ما في استطاعتهم من اجل ان ينفصلوا عن رفاقهم . « (٥١) في العقيدة .

واذن .. فمن الصعب جداً الموافقة على الراي القائل بان البورجوازية اليهودية كانت تشكل منافساً خطيراً للبورجوازية المسيحية ، يمسد خروجها من الفيتو . كما ان الاعتقاد بان البورجوازية اليهودية وجدت في الحركة الصهيونية وسيلة للتعبير عن مطامحها وتأمين سوقها الوطنية، بعيد كل البعد عن الامر الواقع . ومن هنا .. وبرغم ما اثير من نجيج حول اللاسامية في اوربا الغربية، فانها اي البورجوازية اليهودية ، لم تفكر بالبحث عن وطن جديد . وربما كان ذلك بسبب من انها كانت تدرك جيداً ان بروز بعض مظاهر اللاسامية ابان العقدين الاخيرين من القرن التاسع عشر ، في المانيا وروسيا وفرنسا ، انما كان من جهة ، وبالنسبة لالمانية ، مظهرأ من مظاهر الصراع المرير الذي خاضته قوى الاقطاع المعروفة « باليونكرز » من اجل الحفاظ على مواقعها المتنفذة ومحاوله وقف تصاعد الطبقة البورجوازية والتطور الصناعي ، تساعدها في ذلك القوى الاكثريكية

(٥١) لانس ، المصدر السابق ، ص / ٢٨ .

المسكري الى الابد ، بعد ان اقدم على الانتحار حين  
افتضح امره . كما ان البورجوازية اليهودية لابد  
كانت عائلة بان ولي عهد المانيا وزوجته قد ادانا  
الموجة اللاسامية باعتبارها عارا على المانيا ، فيما  
اصدر عدد من المفكرين الالمان بيانا يشجب اللاسامية  
ويعتبرها امرا مضرأ بالبلاد .

ومن ناحية اخرى ، واذا ما انتقلنا الى صعيد  
البورجوازية اليهودية الصغيرة ، ففي سوق العمل ،  
فتحت المستشفيات والجامعات والمدارس والمحاكم  
والمكاتب الحكومية والاهلية ، واسواق البيع بالمفرد  
والجملة والمصارف والنخ . . . - فتحت ابوابها امام  
الاطباء والاساتذة والمدرسين والمحامين والموظفين  
والباعة والتجار اليهود ، دونما تمييز . وقد يكون  
من الطريف في هذا الصدد ، ان نعيد للاذهان جانبا  
من الحديث الذي دار في مقابلة هرتزل مع ملك  
ايطاليا من اجل تأييد ايطاليا لقضية انشاء وطن  
قومي لليهود لاتقاذهم من الاضطهاد والتمييز !!  
قال الملك :

« نحن لانفرك في بلادنا بين اليهود والمسيحيين  
يمكن لليهود ان يكونوا في كل شيء ، في الجيش وفي  
الاعمال الحكومية وحتى السلك الدبلوماسي - كل  
المجالات مفتوحة امامهم . ومع انه بالنسبة الى

عددهم يجب ان يكون لهم مقعد واحد في البرلمان  
او ربما نصف مقعد فان لهم ثمانية عشر مقعدا .  
وقد كان لهم تقريبا وزير في كل وزارة . « (٥٢)

ثم . . هناك مسألة في غاية الاهمية هي التي  
حددت الموقع الاجتماعي الذي كان يتمتع به اليهود  
في اوربا الغربية ، وبالتالي ، رفضهم للحركة  
الصهيونية : تلك هي - البنى الطبقة التي كان  
ينتمي اليها اليهود . فاليهود كانوا حتى القرن  
التاسع عشر ينتمون بدرجة رئيسه الى طبقتين :  
البورجوازية الكبيرة ، والبورجوازية الصغيرة ؛  
وكلاهما طبقة غير منتجة . اما الطبقة العاملة فان  
الحديث عن اقامة وطن قومي يلهم شعشا ليكون بمقدور  
البورجوازية الكبيرة ، بالتالي ، ان توحد القوى  
الانتاجية اليهودية المبعثرة تحت راية سياسة  
واحدة ، يبدو نوعا من مفارقة تاريخية ؛ حيث ان  
الطبقة اليهودية العاملة لم يكن لها انذاك وجود  
محوس ، اذ انها كانت ماتزال في مرحلة جنينية .  
وكما يقول دويتشر فانه « لم يكن هناك عمال يهود  
في اوربا الغربية وان وجدوا فهم قلة . « (٥٤) اما  
اولئك الذين اضطروا الى الانخراط في صفوف

(٥٢) هرتزل ، اليوميات ، ص / ٢١٨ .

(٥٤) دويتشر ، المصدر السابق ، ص / ٤٦ .

الطبقة العاملة من اليهود نتيجة لظروف العمل المتواجدة في بلدان اوربا الغربية المتقدمة صناعياً والتي لم تكن بحاجة الى ماكان يقدمه اولئك اليهود النازحون من اوربا الشرقية من خدمات فردية محدودة في سوق الربا والبيع التجول ، فان افتقارهم الى تقاليد حرفية ارغمهم على اللجوء الى ادنى درجات السلم الانتاجي ، مما كان يعرضهم الى هزات متتالية بسبب تطور العلوم والاختراعات في ميدان الاله ، على خلاف ما كان عليه الامر بالنسبة للطبقة العاملة المسيحية التي انحدرت من اوساط كانت تمارس ، منذ القرون الوسطى وما قبلها ، الحدادة والنجارة والبناء وحياسة الانسجة وصناعة الخمور وغير ذلك من الحرف اليدوية التي كانت معروفة انداك . وفي هذا ، وتوضيحاً لضرورة اقامة « الوطن القومي » في بقعة متخلفة ، يقول الزعيم الصهيوني بير بوروخوف (Ber Borochov) ( ١٨٨١ - ١٩١٧ ) : « .. ان البورجوازية اليهودية الصغيرة والجماهير العاملة يجابهان حاجتين . ان استحالة التغلغل في مستويات اعلى من الانتاج تخلق الحاجة الى هجرة مكثفه الى بلد غير متطور . فبدلاً من الاقتصار على المستويات النهائية في الانتاج كما هي الحال في جميع الاقطار الاخرى ، يستطيع اليهودي في وقت قصير من تولي

المراكز القيادية في اقتصاد البلدان الجديده . » (٥٥) هذا الواقع ، يؤكد لنا حقيقة سبق ان ذكرناها : تلك هي - ان الطبقة البورجوازية اليهودية الكبيرة ، كانت تستند في تنفيذ مشاريعها الانتاجية ، الى الطبقة العاملة ( المسيحية ) ، بالدرجة الاولى . ومن هنا ، فانها لحماقة كبيره لو راود البورجوازية اليهودية وهم وجود طبقة عاملة يهودية مبعثرة ، او لو انها ظنت ان الحكمة تنبع من سوق شرقية في وطن قومي تجمع فيه بضعة الاف من فقراء اليهود المهاجرين من الغيتو الشرقي الذين لم يمارسوا ، حتى نزوحهم ، غير التجارة والربا على نطاق فردي محدود ، والبيع في دروب الغيتو الضيقة ؛ وفي احسن الاحوال ، وبقدر ما يتعلق الامر بميدان العمل الانتاجي ؛ الخياطة والسكرة وصناعة الاقفال وتقطير الكحول ؛ في وقت كانت الطبقة العاملة ( المسيحية ) فيه قد احتلت اعلى المراتب واشدها تعقيداً بالنسبة للتقدم التكنيكي والعلمي في ذلك العصر ، على سلم الانتاج الذي يموله الى حد كبير ، الراسماليون اليهود في ظل الشوره الصناعية . ان اكبر فضيلة يمكن ان تمارسها البورجوازية اليهودية الكبيرة بحق هؤلاء ، هي ان

(٥٥) هرتزبرغ ، المصدر السابق ، ص / ٣٦٢ .

عشر ، عن طريق الجيوش الاوربية الفازية ؛ فهل من المعقول ان تفكر تلك البورجوازية اولا - بالانفصال عن البلدان التي كانت تحقق المصالح اليهودية بجنود مسيحيين عموماً ؛ وثانياً - بتكوين سوق وطنية محدودة القدرة في ( وطن قومي ) متخلف ، عن طريق الصهيونية التي لم تكن تملك انذاك ، وبكلمات هرتزل ، غير « ... جيش من الشباب والشحاذين والحمقى .. » (٥٦) واذا كان لدى البورجوازية اليهودية ادنى رغبة في الحصول على فلسطين ، او اي بلد اخر ، لانشاء (وطن قومي) فانه سيكون بعيداً عن المنطق تماماً ، لو انها فكرت بجعل هرتزل ، ابن تاجر الخشب الصغير في بودابست ورفاقه الصهاينة القادمين من الفيتو الشرقي ، وسطاء بينها وبين حكومات الدول الاستعمارية في وقت غدا فيه رأس المال اليهودي قوة عالمية متنفذة تستطيع ان تحرك خيوط السياسة الدولية بالاتجاه الذي تريد دونما جهد كبير ، ودون ان تخشى ان يرفض لها طلب ، وفي الوقت الذي كان العديد من الشخصيات اليهودية يحتل

Menuhen. Moshe, The Decadence of (٥٦)  
Judaism In Our Time, The Institute  
For Palestine Studies, Beirut, 1969,  
P. 24.

« تصدروهم » الى البرازيل او الارجننتين ، مثلما فعل البارون دي هيرش ؛ وفي احسن الاحوال ، ان تقيم لهم مستعمرات خيرية في فلسطين ؛ كما فعل روتشيلد . وليس من الحكمة في شيء ، بالتاكيد ، لو ان البورجوازية اليهودية ذات الطابع الكوزموبوليتاني ، فكرت بالدخول في معركة مع حليفها البورجوازية المسيحية لانشاء سوق وطنية خاصة بها ، في الوقت الذي كانت فيد اسواق القارتين الاسيوية والافريقية ، اضافة الى اسواق اوربا وامريكا واستراليا ، قد فتحت امام منتجات المصانع التي يمتلكها او يمولها اليهود ، الى جانب حقيقة ان البورجوازية اليهودية استطاعت الوصول الى اعرق مناخم اسيا وافريقيا وغاباتها حتى قبل ان يولد عامل يهودي واحد ، ودون ان تطلق رصاصة يهودية واحدة .

ثم هناك مسألة هامة اخرى : اذا كانت الدول الاستعمارية تستهدف السيطرة على البلدان الاخرى بوصفها مصادر للمواد الخام واسواقاً لتصريف البضاعة المصنعة ، واستثمار الرساميل الفائضة ، واذا كانت البورجوازية اليهودية قد استطاعت بوصفها جزء من الرأسمالية العالمية ، ان تحقق ذلك ، وبنجاح كبير منذ اوائل القرن الثامن

فيه مناصب رفيعة في الاجهزة الحكومية او المؤسسات البرلمانية في الدول الغربية . وكما يقول هاري اليس ، الكاتب الامريكى : « ... فان اسراً يهودية عديدة قد ارتقت في عدة بلدان في اوربا خلال القرن التاسع عشر الى مواقع ذات تأثير عظيم في المجال الاقتصادي ، وكمثال بارز ، البيت المتصرفي لروتشيلد ، تلك القوة المالية في المانيا واطاليا والنمسا وفرنسا واتكلترا . وان احد ابناء الاسرة المسمى ليونيل (Lionel) مد ذرائلي بالاموال التي ساعدت الحكومة البريطانية في الحصول على حصة مهيمنة في قناة السويس . وقد اصبح ليونيل اول يهودي غير معمد يجلس في مجلس العموم ، كما اصبح ابنه نانان ماير (Nathan Meyer) الذي منح لقب بارون روتشيلد ، اول عضو يهودي غير معمد في مجلس اللوردات . » (٥٧)

ان الواقع الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والثقافي للتجمعات اليهودية في اوربا الغربية ( وامريكا ايضاً ) ، يعكس لنا صورة تتناقض كلية ومايقال عن وجود عداء مستفحل بين البورجوازيين اليهودية والمسيحية .

Ellis Hary B., Israel and the Middle East, The Ronald Press Company, New York, 1957, P. 52. (٥٧)

وتكتمل هذه الصورة بحركة الاصلاح الديني والاندماج الاجتماعي والثقافي ، التي بدأت في اوربا الغربية منذ القرن الثامن عشر ، والتي أدت ، وبوتيرة متسارعة ، الى تلاشى الهوية اليهودية ، حيثان « اليهودية الغربية دخلت بشكل عام ابتداء من القرن التاسع عشر في طريق الاستيعاب التام . . ( و ) في نهاية القرن الثامن عشر وخلال ثلاثين سنة ، تحول نصف يهود برلين الى المسيحية » (٥٨) وغدا من النادر ان يعقد بين الطائفة اليهودية زواج يكون فيه كلا الطرفين ، من اليهود ، كما يعترف بذلك الكاتب البريطاني الصهيوني ، لويس غولدنغ الذي يشير الى انه « ... في نسبة كبيرة طائفة من من الحالات كان الابناء يفقدون يهوديتهم بصورة كلية . » (٥٩)

ويؤكد دويتشر في كتابه اليهودي اللايهودي انه : « في حياة ماركس التي شهدت عصر الاندماج كانت هوية اليهودي تمر في طور التلاشي ، على

(٥٨) ليون ، المصدر السابق ، ص / ١٥١ .

Golding. Louise, The Jewish Problem, A Penguin Special, London, 1939, PP. 77-78. (٥٩)

الذي كان من المقرر ان يبحث المسألة اليهودية  
وفلسطين ، قدم النائب الامريكى اليهودي كان  
(Kahn) عريضة باسم ثلاثين شخصية يهودية  
الى الرئيس الامريكى ويلسن ؛ اعرب فيها عن  
معارضه اليهود للصهيونية ومشروع انشاء دولة  
يهودية في فلسطين .

لقد كانت حركة الاصلاح الديني والاندماج  
تجري بوتيرة مذهلة الى درجة جعلت جاكوب  
كلاتزكين ، الزعيم الصهيوني ( ١٨٨٢ - ١٩٤٨ )  
يقول : « انني اعتقد ان الاندماج الكلي لشعبنا  
ممكن . ان الاندماج يسري بسرعة اعظم ابدا بين  
قطاعات شعبنا وان تأثيره يصبح ابداً اكثر  
عمقا . » (٦٢) . اما هرتزل فلم يكن ليتردد عن  
الاعلان عن النتائج التي يمكن ان تنجم عن وجود  
ظروف معيشية اعتيادية بالنسبة للمواطنين اليهود  
في المجتمع الاوربي ، بالرغم من احاديثه التي تفصح  
عن هوس محموم ، عن المشكلة اليهودية ، والاسامية  
التي يجب دوماً ان يتصور انها مشكلة ازلية قائمة  
ابدا طالما كانت هناك عقيدة يهودية . يقول هرتزل :

(٦٢) هرتزبرغ ، المصدر السابق ، ص / ٢٢١ .

الاقبل في غرب اوربا . » (٦٠) وانطلقت حركة الاصلاح  
الديني التي استشرت في اوربا الغربية واميركا  
داعية الى نبذ التفسيات والطقوس والمعتقدات  
الجامدة ، وتهيئة الفرد اليهودي لحياة جديدة  
بوصفه مواطناً في البلد الذي يولد ويعيش فيه .  
ومن الاسماء التي تزعمت هذه الحركة موسى  
مندلسون ، وارون بيرنشتين ، وكيريل رايسر ،  
وابراهيم كايجر ، وتشارلستون هاربي ، واسحاق  
وايز ، وصموئيل هولدهايم ، واميل هيرمش وج .  
م . فايس وغيرهم .

وفي عام ١٨٨٥ عقد في بتسبرغ ( امريكا )  
مؤتمر يهودي اتخذ فيه المؤتمر قراراً يؤكد :  
« لن نعتبر بعد اليوم اننا نكون امة ما .. بل نعتبر  
انفسنا نؤلف طائفة دينية ، ولهذا فنحن نقرر اننا  
لانرغب بالعودة الى فلسطين ، ولانريد استعادة  
ارض الميعاد لاقامة دولة عليها ... » (٦١)

كما انه في عام ١٩١٩ ، وبعد سنتين من  
صدور اعلان بلفور ، وقبل انعقاد مؤتمر السلام

(٦٠) دويتشر ، المصدر السابق ، ص / ٢١ .

(٦١) ليلينثال . الفردي ، نمن اسرائيل ، ترجمة حبيب نحولي  
وياسر هوارى ، الكتب التجاري بيروت ، ١٩٥٢ ،  
ص / ٢٠ .

« انا نندمج حينما نبقى سياسياً في امان لاية  
فترة من الزمن . » (١٢)

هذه حقائق مختصرة جداً تمكس وضع  
اليهود في اوربا الراسمالية منذ عودتهم الى اوربا  
الغربية ، كما تمكس موقف اليهود في امريكا من  
الصهيونية ، سقتها على سبيل المثال لا الحصر .  
فهل يمكننا بعد ذلك ان نتصور ، كما تريد  
الصهيونية ان نفعل ، ان اليهود هناك ، كانوا لا  
يستطيعون تحريك رؤوسهم وهم يرزخون تحت  
وطاة كابوس مرعب ثقيل ، مما يضعهم امام خيار  
واحد : البحث عن وطن ! ولكي تكون الصورة اكثر  
اكتمالا ، لابد من القاء نظرة عاجلة على ما كان عليه  
اليهود في اوربا الشرقية .

### الواقع اليهودي في اوربا الشرقية

لقد وجد اليهود في اوربا الشرقية خلال تلك  
الحقبة التي كانوا قد طردوا فيها من معظم بلدان  
اوربا الغربية ، حلا نياً لمشكلتهم ، جعل بمقدورهم  
ان يحتلوا نفس المواقع الاقتصادية - الاجتماعية  
التي كانوا يحتلونها في اوطانهم القديمة ، وان

(١٢) هرتبرغ ، نفس المصدر ، ص / ٢١٠ .

يستمروا في اداء نفس الوظيفة الاقتصادية التي  
كانوا يمارسونها في غربي القارة ، وذلك بسبب من  
انه كانت هناك في هذا الجزء من القارة ، ظروف  
مرحلة تاريخية كانت ماتزال بحاجة الى الخدمات  
التي تخصصوا في اداؤها طيلة قرون بكاملها . ف فيما  
كانت اوربا الغربية تندفع مسرعة نحو مراحل  
متقدمة من النظام الراسمالي ؛ كانت اوربا الشرقية  
ما تزال تتنفس برئة اقطاعية ؛ وكانت علاقات  
الانتاج تستند الى النظام التبادلي الذي يجري على  
اساس المقايضة . وهكذا .. حين بدأت جموع  
اليهود تتجه نحو روسيا وبولونيا ، كانت كمن عاد  
الى بيت قديم . لقد كانت روسيا وبولونيا بحاجة  
ليس فقط الى خدمات كبار المولدين والصارفة  
والتجار اليهود الذين يستطيعون تلبية احتياجات  
الارستقراطية الاقطاعية ، وانما كانت ايضاً بحاجة  
الى الخدمات الصغيرة التي يستطيع ان يقدمها  
المرابي والتاجر الصغير والبائع المتجول للفلاح  
والحداد والكاسب الروسي الصغير .. كما كانت  
بحاجة الى وكيل يهودي في المزارع الاقطاعية ؛  
يجمع الايرادات ويجبي الضرائب من الفلاحين  
الفقراء . من هنا كان اليهود في اوربا الشرقية  
عموماً ينعمون بحياة هادئة باستثناء حالات فردية  
محدودة ، حتى العقود الاخيرة من القرن التاسع

عشر . كان اليهود يتحركون في نطاق الاستقرائية الشرقية . . . وكان عدد منهم يتولى مناصب رفيعة . بل ان التاريخ يحدثنا عن انه لم يكن هناك ما يجعل انتخاب ملوك يهود امراً غير اعتيادي في روسيا وبولونيا ابان القرنين التاسع والسادس عشر ، كما يخبرنا المفكر اليهودي موشي مينوهين . (٦٤) وكان الممولون اليهود يسيطرون على قطاعات هامة من الاقتصاد في اوربا الشرقية ، مثل المصرفي الكبير ليفكو ، في كاراكوفيا ، الذي كان يعول ملوك المملكة الهنغارية ، كما كان يقوم بسك النقود ، ويحتكر ممالح فلزكا وبوشينا ، وفوض ادارة ( قصر اموال ) كاراكوفيا . وكان ايضاً امين خزانة ثلاثة ملوك بولونيين . وبسبب من المكانة الرفيعة التي بلغها في عالم النقد والمال ، انعم عليه بلقب « الرجل المميز » (٦٥) ولم يكن امراً استثنائياً ان تقف المحاكم في القضايا التي ترفع اليها ، الى جانب المرابين والمولين اليهود الذين تنتقل اليهم ملكية اراضي النبلاء حين يعجز هؤلاء عن الوفاء بديونهم ، ويحاولون استعادة اراضيهم بطريق القوة . ولم تكن المحاكم لتتردد في ان تفرض على النبلاء غرامات

(٦٤) مينوهين ، المصدر السابق ، ص / ٢٦ .

(٦٥) ليون ، المصدر السابق ، ص / ١٢٦ .

مالية كبيرة لصالح المرابين اليهود . (٦٦) ولم يكن هذا الوضع المتميز مقتصرأ على اثرياء اليهود ، إذ ان اليهود عموماً كانوا يتمتعون بامتيازات لم يكن يحلم بمثلها الملايين من جماهير اوربا الشرقية حيث اذت المكانه التي كانوا يحتلونها في عالم المال والاقتصاد الى ان يشكلوا دولة ضمن دولة . لقد كانوا يتمتعون بما يشبه استقلالاً داخلياً ، حيث كان لكل مدينة او قرية يهودية مجلس خاص ، يسمى « الكاحالا » ، يدير شؤونها . وفي بولونيا ، وبموافقة السلطات ، كان مايسمى (Vaad Arba Arazoth) « مجلس الاراضي الاربع » يدير الشؤون اليهودية . وكان هذا المجلس يضم ممثلين عن بولندا الكبرى ، وبولندا الصغرى ، وغاليسيا ، وفولينيا (Volhynia) . وكما يقول ليون ، فان حماية اليهود في اوربا الشرقية « اتخذت . . . مقاييس غير مألوفة في ذلك العهد . ففي عام ١٥٠٤ صرح ملك بولونيا بانه يتصرف مع اليهود ، كما يليق بالملوك والعظماء الذين يجب ان لا يتميزوا فقط بسماحتهم حيال المسيحيين ؛ بل ايضاً تجاه معتنقي الاديان الاخرى . » (٦٧) فيما اصدر

(٦٦) بورد ليون امثلة عدة حول انتقال ملكية اراضي النبلاء الى المرابين اليهود ، يستطيع القاريء العودة اليها .

(٦٧) ليون ، نفس المصدر ، ص / ٩٩ .



سيجسموند اوغست في ( ١٥٥١ ) مرسوماً وضع  
اساساً لاستقلالية اليهود في بولونيا الكبرى ، حيث  
جاء فيه انه يحق لليهود ان يختاروا ، من يدير  
شؤونهم من الحاخامين والقضاة ، وتوضع قوى  
الدولة القسمية تحت تصرفهم في الحالات الموجبة . (١٨)

وفي القرون اللاحقة ، ومع التطورات التي  
اخذت تتغلغل في مختلف مناحي الحياة ، لم تتضاءل  
المكانة التي كان عليها اليهود ، وانما ازدادت توسخاً  
وقوة . فقد استطاع الاثرياء من اليهود الروس ان  
يجمعوا ثروات اسطورية عن طريق بناء السفن ومد  
السكك الحديدية وانشاء المؤسسات المصرفية  
وكمقاولين وتجار وممولين ومقرضين ، الخ . . .  
ويعترف غرينبرغ ، الكاتب الامريكسي اليهودي في  
كتابه « اليهود في روسيا » انه في عام ١٨٦٦ ،  
نشرت الصحف الروسية خيراً مفاده ان مجموعة  
من التجار المسيحيين البارزين في سانت بيترسبرغ ،  
رفعوا الى الحكومة عريضة طالبوا فيها ان تجعل  
من اليسور للتجار اليهود ان يمارسوا اعمالهم  
التجارية في العاصمة ، كما الامر في جميع انحاء  
روسيا . (١٩)

(١٨) ليون ، نفس المصدر ، ص / ١٢١ .

(١٩) غرينبرغ ، المصدر السابق ، المجلد الاول ، ص / ١٦٨ .

وبروي غرينبرغ حكاية طريفة عن يهود روسيا  
تقول الحكاية :

ان شكوف (Shklov) واحد من المراكز  
الحيوية اليهودية في الامبراطورية الروسية ( روسيا  
البيضاء ) وبالرغم من اهمية هذه المدينة من الناحية  
التجارية والدينية ، الا ان اجهزة الاعلام كانت  
اعجز من ان تنقل صورة حية عنها الى اليهود الذين  
يقطنون في مناطق اخرى . ففي سنة ١٨٠٢ ارسل  
يهود مدينة كيزريل غار

(Kizil Gar)  
رسالة يستفرون فيها عن صحة ما تنهى لهم من  
ان هناك يهوداً في روسيا ، وما اذا كان بمقدور  
يهود بخارى ان يذهبوا الى هناك بقصد العمل .  
بعد عام واحد جاءهم الرد . « . . . ان شكوف  
هي مدينة وهي ام اسرائيل . انها مدينة ملأى  
بالرجال الحكماء والكتاب ، مدينة يقف سكانها  
اليهود بين اثرياء ومشاهير الارض . » (٧٠) ومن  
بين مشاهير رجالها اليهود زابتلين (Zeitlin)  
صديق الامير بوتمكين (Potemkin) ومدير  
مقاطعته .

(٧٠) غرينبرغ ، نفس المصدر ، ص / ٢٢ .

ومن بين اشهر الممولين اليهود افزيل غونزبرغ (Evzel Glünzburg) ؛ [ منحه دوق هيس - دار مشتات ، لقب بارون ] الذي قام بإنشاء أول مؤسسة مصرفية اهلية في روسيا . وكانت هذه المؤسسة تقدم المعونة المالية للحكومة في مشاريعها خارج البلاد ؛ كما كانت تقدم القروض لبناء السكك الحديدية و ابراهام زاك (Abraham Zack) ' وكان رئيساً لاقوى مصرف تجاري في بيترسبرغ . وقد عين مساعداً لوزير المالية ؛ كما كان يعتبر مرجعاً استشارياً ترجع اليه المؤسسات واللجان الحكومية في شؤون بناء السكك الحديدية .

ومثلما اندفع المولون والاسر اليهودية الثرية في اوربا الغربية نحو بناء الخطوط الحديدية ، كذلك فعل المولون اليهود في روسيا . ومن بين هؤلاء سامويل بولياكوف (Samuel Poliakov) الذي كما يلقب بـ « ملك السكك » (٧١) حيث قام ببناء العديد من الخطوط الحديدية ، وأسس أول مدرسة للسكك الحديدية في روسيا واعترافاً بجهوده ، فقد أصبح نبيلاً ، ومنح لقب مستشار خاص

(٧١) غرينبرغ ، نفس المصدر ، ص / ١٧٢ .

(Privy Councilor) كما منح شقيقان له ، نفس اللقب . ومن بين الذين ساهموا ببناء السكك الممول اليهودي ايفان بليوخ (Ivan Blioch) .

ان اليهود لم ينشطوا في الميدان التجاري والمالي حسب ، وانما كان هناك عدد لا يستهان به منهم ممن لعبوا دوراً له اهميته في مختلف جوانب الحياة العامة . فكان هناك من عمل في السكك القضائي والمحاماة والتدريس في الجامعة والطب والادارة والنخ . . . كما اسهم عديد منهم في الحياة الثقافية الفكرية والادبية والفنية ، وفي مجال العلوم . والجدول الاحصائي التالي يبين لنا مجاميع الحرف والاعمال التي كان يمارسها اليهود ، كما يعكس لنا الاوضاع الاقتصادية التي كان عليها يهود روسيا ( ١٨٩٧ ) . وقد جمع استناداً الى ثلاثة جداول احصائية منشورة في كتاب :

Isaac M. Rubinow, Economic Condition Of The Jews In Russia, Arno Press, New York, 1975, PP. 498 - 500.

ومثلما حدث في اقطار اوروبا الغربية في اعقاب حركة تحرير اليهود ، حيث انطلقت حركة الإصلاح الديني والدعوة الى الاندماج الثقافي ، واعتبار اليهود مواطنين في البلدان التي يولدون فيها ، فان الظروف الاقتصادية لليهود روسيا ، ادت الى تطورات مماثلة حيث قامت حركة واسعة النطاق ومتزايدة المدى تنادي بالاصلاح الديني والدعوة الى الاندماج الثقافي والقومي في المجتمع الروسي . وغدت الصيحة التي اطلقها الشاعر اليهودي غوردن (Gordon) : « كن يهوديا في خيمتك ، ورجلا في الشارع . » (٧٢) شعار حركة التنوير اليهودية ، في روسيا .

قد يبدو ماوردته من اسانيد ومقتضيات نمطاً من الكتابة الانتقائية ، التي تتغافل عادة عما لايتلاءم واغراضها . غير ان الامر ليس كذلك . فانا

#### ملاحظة :-

يبلغ عدد اليهود العاملين واسرهم ، بسفاه لهم قرابة مائة الف يهودي لم يدرجوا في هذا الجدول ( مساجين ، عاطلين ، متنفذين من جمعيات خيرية الخ .. ) ( ١٥٦ و ٦٢٠ ره ) نسمة ، وهو عدد اليهود في روسيا انذاك . والجموع الكلي اعلاه يشمل العاملين واسرهم .

(٧٢) غرشبرغ ، المصدر السابق ، ص / ١٢٠ .

مجاميع الحرف	العدد	النسبة المئوية
اعمال زراعية ( بما فيها تربية المواشي وشجر الغابات الخ .. )	٤٠٦١١	٢٠٩
خدمات حرفية ( ادارة فضاء ، بوليس ، بلديات ، خدمة مدينة محلية ، محاماة ، رجال دين ، معلمون ، ادب * فن ، ثقافة ، علوم ، طب ، صحة )	٧١٠٩٥٠	٥٥
خدمات شخصية ( فنادق ، مطاعم ، تنظيف ، حرف غير محدودة )	٢٧٧٠٤٦٦	١٩٢
اعمال صناعية وميكانيكية ( مناجم ، صهر معادن ، انتاج حيواني ، نجارة ، نسيج ، صناعة المعادن ، خرف صناعات كيميائية كحولية ، غذائية ، تبوغ ، طباعة ، ورق ملابس مجوهرات ، ادوات رسم الخ .. )	٥٤٢٠٥٦٢	٢٧٠٩
مواصلات ( سكك ، نهريية * عربات بريد ، برك ، تلفون )	٥٥٩٢٤	٢٠٢
تجارة ( مؤسسات الاعتماد والتأمين ، وسطاء ، تجارة عامة ، تجارة المواشي والحبوب والمنتجات الزراعية والمواد الانشائية والمعادن ومختلف انواع النسيج واللباس ، الفراء ، الجلود ، باعة متجولون ، ونجار كحول . )	٥٢٥١٩٢	٢١٥٩
الجموع	١٠٢٠٧٢٧	١٠٠٠

الشعب الروسي البائس . ولنا في ما يورده غرينبرغ من مقارنات في هذا الصدد ، ما يؤيد هذا . يستند غرينبرغ الى دراسة احصائية قام بها الممول اليهودي ايفان بليوخ ، انف الذكر ، والذي يستند بدوره الى المعلومات التي قامت بجمعها خلال فترة خمسة اعوام ، لجنة حكومية خاصة عينت عام ١٨٨٢ ، لدراسة واقع اليهود خلال مائة عام يقول غرينبرغ ان دراسة بليوخ تظهر ان عشر الاسر الفلاحية داخل المستوطنه اليهودية (Pale)

كان في « حالة ممتازة » ، بينما لم يعثر على اية اسرة فلاحية في المناطق المجاورة في مثل هذه الحالة الاقتصادية . وفي تلك الحالات التي وصفت بانها « جيدة جداً » ، كان ( ٢٢٫٩٪ ) من الاسر الفلاحية في المناطق اليهودية ، بالمقارنة مع ٥٠٪ فقط في المناطق المجاورة . اما ما وصف بـ « حالة جيدة » ، فكانت النسبة داخل المستوطنة اليهودية ( ٨١٪ ) بالمقارنة مع ( ١٢٫٨٪ ) في مثل هذه الحالة في احدى عشرة منطقة مجاورة للمستوطنة . اما « الحالة المتوسطة » ، فقد كانت النسبة داخل المستوطنة ( ١٨٫٥٪ ) ، وفي المناطق المجاورة ( ٦٦٫٢٪ ) . اما بالنسبة لما وصف « بحالة غير مرضية » ، فلم يعثر على اية اسرة بهذه الحالة داخل المستوطنة اليهودية ، في الوقت الذي بلغت فيه النسبة في هذه

لا يريد ان اذعم انه لم تكن هناك بعض مظاهر الاضطهاد في فترات زمنية معينة - تلك المظاهر التي ينبغي الاتفسر في ضوء المقولات الميتافيزيقية ، وانما في ضوء طبيعة النشاط الاقتصادي الذي يمارسه اليهود ، ودور واثر هذا النشاط بالنسبة لمختلف فئات المجتمع ضمن ظروف نوعية تاريخية محددة . ولا يريد ان اذعم ، من جهة اخرى ، بان جميع اليهود كانوا يتمتعون بمستوى اقتصادي - معيشي عال ، وانهم جميعاً كانوا يتحركون في الوسط الارستقراطي الروسي . فقد كان هناك برغم التماثل في النشاط الوظيفي الذي كان يمارسه اليهود ، شرائح تتباين درجة من ناحية التخصص والممارسة . فقد كان هناك اثرياء يهود يحتلون المراتب العليا في سلم المال والاقتصاد . وكان هناك تجار ومرابون وصيارفة صغار يحتلون مواقع دنيا . كما كان هناك حرفيون بدائيون وكسبه صغار وباعة متجولون الخ . . . غير ان ما كانت تعانيه الفئات الدنيا من اليهود من ضغوط ومصاعب اقتصادية ، كان يتجاوب والمستوى الاقتصادي العام في روسيا القيصرية ، ولم يكن حظ اليهود وحدهم . ان اليهود ، بالاحرى ، كانوا في وضع افضل بكثير مما كانت تعانيه الغالبية الساحقة من

الحالة خارج المستوطنه ( ١٩٤٤٪ ) وتتناول  
 الاحصائية المواسي فتقول انه ابتداء من عام ١٨٥٦ ،  
 لغاية اواسط الثمانينات ، كان الانخفاض في عدد  
 المواسي في المناطق التي يسمح لليهود بالعيش فيها ،  
 اربع مرات اقل من مثيله في تلك المناطق التي لا  
 يسمح لليهود بالعيش فيها . اما بالنسبة لاحتياطي  
 التجهيزات الغذائية ، فقد كان الاحتياطي داخل  
 المناطق اليهودية اعلى منه خارجها بمقدار مرتين  
 ونصف ، وان النقد المخصص لمثل هذه التجهيزات  
 في المناطق اليهودية ، كان يعادل ضعف مثيله في  
 غيرها . (٧٢)

وعلى اية حال ، فان الامور لم يكن مقدرا لها  
 ان تسير بنفس الاتجاه الذي كانت تسير فيه ، وخاصة  
 بعد حركة اصلاح الاقتصادي - الاجتماعي في  
 ستينات القرن . لقد بدأت روسيا الاقطاعية  
 بالتفتت مع بدء زحف التطور الصناعي . ومثلما  
 بدأت مواقع اليهودية في اوروبا الغربية بالاهتزاز ،  
 عند بدء نشوء طبقة بورجوازية مسيحية ، اخذت  
 مواقع اليهود في المقدين الاخيرين بالاهتزاز ايضا ،  
 في روسيا القيصرية ، وخاصة بعد اغتيال القيصر  
 الاسكندر الثاني من قبل عناصر كان من بينها بعض

(٧٢) غريبنوڤ ، نفس المصدر ، المجلد الاول ، ص / ١٦٨ - ١٧٠

اليهود . ويعلق ليون على بدء مصاعب اليهود في  
 روسيا بقوله : « لم يبدأ يؤس اليهود في روسيا  
 الا منذ تدمير العبودية والنظام الاقطاعي للملكيه  
 الريفية وقد وجد اليهود امكانيات واسعة  
 للاستمرار كتجار ووسطاء ، طوال المدة التي  
 سيطرت فيها العبودية والاقطاع . » (٧٤)

عند هذا المنعطف ، وجد اليهود الروس  
 انفسهم وجها لوجه امام مشكلتهم القديمة : البحث  
 عن ملجأ جديد . وبالرغم من ان الدعوة بدأت  
 ترتفع لحث اليهود على الهجرة الى فلسطين ؛  
 وبالرغم من ان الصهيونية بدأت تمارس نشاطها  
 وتبث دعوتها في مختلف الاوساط الاوربية ؛ وبالرغم  
 من ان جموعا من المفامرين من شتى البلدان الاوربية  
 كانت ، في تلك الحقبة ، تتدفق نحو الشرق - نحو  
 مصر (٧٥) ، على وجه التخصيص ( والتي هي على  
 اية حال ، قريبة من فلسطين من عدة وجوه ،

(٧٤) ليون ، المصدر السابق ، ص / ٢٤ .

(٧٥) يذكر لانس في بحثه القيم اعلاه ، ان متوسط عدد  
 القادمين الى مصر بدأ منذ سنة ( ١٨٥٧ ) بالارتفاع من  
 ( ٣٠٠٠٠ ) شخص سنويا ، حتى بلغ ( ٨٠٠٠٠ ) شخص  
 سنة ( ١٨٦٥ ) ، حيث هبط الرقم الى ( ٥٠٠٠٠ ) سنة  
 ١٨٦٦ . المصدر السابق ، ص / ٨٧ - ٨٨ .

وتشكل جزء من « الامبراطورية الاسرائيلية » طبقاً للتوراة وميثاق الرب ) وذلك بحثاً عن الاتراء السريع ؛ فان اخر موجات الهجرة اليهودية من اوربا اختارت الطرق المؤدية الى امريكا واستراليا وجنوب افريقيا ، وليس الى فلسطين او اي بلد اخر من بلدان المنطقة ، مع ان ذلك الاختيار ، عرضهم الى هزة اقتصادية جذرية عنيفه ، حيث انهم وجدوا انفسهم فجأة في مواجهة ظروف تحتم عليهم الانتقال من واقع اقتصادي اعتادوا العيش ضمنه قروناً بكاملها ، الى مواقع وظيفية جديدة كلياً والانتماء الى تركيبات وبنى اجتماعية - اقتصادية لم يمهدها من قبل ، وذلك كنتيجة حتمية لانتقالهم من واقع اقطاعي متخلف الى مجتمعات متطورة اقتصادياً وصناعياً ، لم تكن بحاجة الى الممارسات البدائية الضرورية التي كان يتعاطاها اليهود في روسيا القيصرية . هذا فيما ان بلدان الشرق عموماً ؛ كان يمكن ان تؤمن لهم الاستمرار لفترة طويلة في ممارسة وظيفتهم التقليدية براحة كلية في ميدان المال والتجارة . وحتى بعد صدور اعلان بلغور ، فان اليهود الذين كانوا يضطرون ، لسبب او لآخر ، الى الهجرة من اوطانهم ، لم

يختاروا النزوح الى فلسطين ، وانما اتجهوا الى امريكا بصورة رئيسية . من هنا نستطيع ان ندرك اسباب القلق الذي انتاب وايزمن حين وقف يملن في رومانيا ( ١٩٢٧ ) خلال الحملة التي نظمتها الصهيونية من اجل حث يهود العالم على الهجرة الى فلسطين ، بعد عشرة اعوام من صدور اعلان بلغور : « انهم [ الحكومة البريطانية ] يعرفون ان اليهود كانوا ضدنا ، اننا كنا نقف بمفردنا ، فوق جزيرة صغيرة ، مجموعة صغيرة من يهود ذوي ماضي اجنبي . » (٧٦)

واستكمالاً للصورة ، قد اجد لنفسي مبرراً للعودة قليلاً بالقارىء الى الوراء . . الى العقود الاخيرة من القرن التاسع عشر ، لاستجلاء موقف اليهود الروس من الصهيونية ، وسأترك لفرينبرغ؛ ان يوجز ذلك الموقف . فيقول :

« منذ البداية تماماً ، قابلت الصهيونية معارضة قوية في الوسط اليهودي . وكان جانب منها [ اي المعارضة ] لاسباب ايدولوجية ، فيما كان اخر سببه الخوف . لقد حارب البولنديون

المهاجرين من اوربا الشرقية عند منمطف القرن  
وخلال العقود الاولى من هذا القرن قد وجدت حلا  
لمسككتها عبر الاطلسي وفي جنوب افريقيا  
واستراليا ؛ واذا كانت « ... الاغلبية العظمى من  
يهود اوربا الشرقيين ، ... حتى نهاية الحرب  
العالمية الثانية ، من المعارضين للصهيونية . » (٧٨)

فمن بقي من اليهود كي يتبنى الفكرة ،  
فالحركة الصهيونية ؟ ما هي دوافعها ؛ ومن كان  
يقف وراءها ؟

### الصهيونية حقيقة استعمارية

عدا عما يعتقد البعض من ان الحركة  
الصهيونية قد برزت الى الوجود كاحتجاج ضد  
الحركة الاندماجية ، كما يقول دويتشر : « مهما  
يكن من امر ففي نهاية القرن كانت « هوية اليهود  
المحددة ايجابياً » تمر في طور الانحلال . والحقيقة  
ان الصهيونية برزت الى الوجود كاحتجاج ضد  
هذا الانحلال ... » (٧٩) او كما يعلن ناحوم غولدمان :  
« كان هدف الدولة اليهودية صيانة الشعب  
اليهودي الذي كان يتعرض لخطر التحرير ( من

(٧٨) دويتشر ، المصدر السابق ، ص / ٦ .

(٧٩) دويتشر ، المصدر السابق ، ص / ٢٠ .

الصهيونية ، نظراً الى انهم اعتبروها محاولة لحرف  
اهتمام الجماهير عن الصراع الطبقي الذي كان  
يرايهم اهم وسيلة للخلاص النهائي للبروليتاريا  
اليهودية . اما الاندماجيون ، فقد نظروا الى  
الصهيونية بتجهم نظراً الى انها تؤخر العملية التي  
كانوا يرون فيها مفتاح المشكلة اليهودية . ونظر  
اليهود الاثرياء الى الحركة بازدراء لانهم كانوا  
بالدرجة الرئيسية يخشون ان تطعن في وطنيتهم ،  
وتجمل من وضعهم كمواطنين ؛ اقل امانا . ومع  
استثناءات قليلة ، فان الطبقات العليا في كل بلد  
كانت اما غير مكترثة او معادية . » (٧٧)

واذن .. واذا كانت هذه هي الصورة العامة  
لواقع التجمعات اليهودية في اوربا الشرقية  
والغربية ، وموقفها من الحركة الصهيونية ؛ واذا  
كانت الحقائق التي اوردناها اعلاه تؤكد ان الاعتقاد  
بتحويل فلسطين الى ورشة عمل وسوق وطنية  
للبورجوازية اليهودية انما هو اقرب الى وهم  
مفترض من كونه حلا لمشكلة لم تكن قائمة بالشكل  
الذي اعتاد العالم ان يراها به ؛ واذا كانت جماهير

(٧٧) هرينبرغ ، المصدر السابق ، المجلد الثاني ، ص / ١٧٣ .

«الغيتو» والاندماج (٨٠) - عدا عن هذا فانني لا اريد ان اتصور ، عند بحث اسباب بروز الحركة الصهيونية ، بانني سوف لا اعيد تكرار حقيقة لم تعد خافية . ومع ذلك ، فقد يكون ملائماً لو استعدنا بعضاً من احداث شهدتها مؤسسات اخذت على عاتقها ، ابان القرن التاسع عشر ، مهمة رعاية المصالح الامبريالية البريطانية .

ولندع جانباً ، ولكن بصورة مؤقتة ، مقرر وزارة الخارجية البريطانية ، التي انطلقت منها اخر دعوة لاسكان اليهود في فلسطين ، وننتقل في محاولة الرد على تلك الاسئلة ، من مواقع تطل على البحر الابيض المتوسط ، فرنسا اولاً ، التي تحتل موقعاً اقرب من ذلك الذي تحتله بريطانيا ، بالنسبة للهند والشرقين الاوسط والاقصى ؛ ومصر ثانياً ، التي تشكل مع بقية البلدان العربية امتداداً ارضياً يبدو اشبه بجسد عازل يقع ما بين بريطانيا والهند والشرق الاقصى . وتجنباً لتكرار حقائق ووقائع تاريخية معروفة ، لانريد ان ندخل في تفاصيل

Taylor. Alan R., A Prelude to Israel, (٨٠)  
An Analysis of Zionist Diplomacy  
1897-1948, Philosophical Library,  
Inc., New York, 1959, P. 2.

العلاقة التنافسية المميتة بين فرنسا وبريطانيا من اجل السيطرة على المنطقة . غير انه لا بأس ان نتذكر ما كان يؤكد مخاوف بريطانيا ويرفع درجة قلقها الى حد الارق المستبد ، ان محمد علي الذي كان يحظى بتأييد فرنسا ، كان يسعى الى اقامة امبراطورية قوية جديدة عند ملتقى القارتين : اسيا وافريقيا . وبطبيعة الحال فان الاخطار التي يمكن ان يسببها هذا الطموح اضافة الى مواسع فرنسا الجغرافي اولاً ، ولدى بلاط محمد علي ثانياً ، بالنسبة للمصلحة الاستعمارية البريطانية ، ليست غير مفهومة . وعليه ، فقد بدأت بريطانيا تفكر بشكل جدي باعادة محمد علي الى حجه الطبيعي ، وكان المفتاح الرئيس الذي يجعل بمقدورها ان تنفذ خططها تلك ، خلق مبرر او ذريعة للتدخل في المنطقة وفي هذا يقول ستوارت : « ان اللورد بالمستون ، مهندس سياسة بريطانيا في القرن التاسع عشر ، كان يشعر الان بأسف لانه لم تكن هناك في فلسطين العامل الحاسم بالنسبة للامبراطورية الجديدة ، اقلية ملائمة تستطيع بريطانيا ان تتخذ من حمايتها ، ذريعة لطرد المصريين . ( ان حججاً مماثلة كانت تستخدم من قبل قوى اخرى في اقاليم اخرى من الامبراطورية العثمانية ، ففرنسا مثلاً كانت تستغل



العلاقة التقليدية مع المسيحيين المارونيين الذين يعيشون في جبل لبنان . ) غير ان الغالبية العظمى من الفلسطينيين كانت ، مثلها مثل الاثراك والمصريين ، من المسلمين السنة ، وقد بدا ارتباطها بالمسلمين بوضوح ، اثناء غزوة نابليون لبلادهم .  
 وحيث انه لم تكن توجد هناك اقلية يمكن حمايتها ، في فلسطين تساءل بالمستون ما اذا لم يكن ممكننا زرع واحد . « (٨١) وبالرغم من ان اليهود المنتشرين في مختلف أرجاء العالم لم يكن لديهم اي اهتمام ورغبة في الهجرة الى فلسطين ، كما رأينا ، فان بالمستون ، استلهم انوراثة ورؤى العودة الرومانتيكية وراح يفكر فيما اذا امكن « ... استخدام حنين اليهود الى الارض المقدسة لصالح بريطانيا » . (٨١)

وعليه .. فقد كانت المرحلة اللاحقة في تفكير بالمستون ، ان ينقل تساؤلاته وافكاره الى حيز التطبيق . فقد كتب الى قنصله في القسطنطينية يحثه على منح الحماية اللازمة لليهود . وكعادة

Stewart. Desmond, The Middle East: (٨١)  
 Temple of Janus, Hamish Hamilton,  
 London, 1972, P. 24.

الدبلوماسية البريطانية ، لايفوت بالمستون ان يضع المسألة كلها بصورة ملتوية ، ليراها الآخرون ، كما تريد تلك الدبلوماسية ، على غير حقيقتها . فعودة اليهود الى فلسطين صورت وكأنها ستكون منطلقا من الحرس على مصلحة تركيا والسultan .. اما بريطانيا فلا علاقة لها بها لامن قريب ولا من بعيد ! قال بالمستون في رسالته :

« ان تشجيع اليهود على العودة والاستقرار في فلسطين سيكون ذا أهمية بينة بالنسبة للسultan ، نظرا الى ان الثروة التي سي جلبونها معهم ، ستزيد من موارد اقاليم السultan ؛ وان الشعب اليهودي لو عاد بموافقة وحماية السultan وبدعوة منه ، فانه سيكون كابحا لاية مخططات شريرة مقبلة لمحمد علي ابو خلفائه . « (٨٢)

فيما يرد في المقطع الذي يقتبسه يوري افنري من الرسالة في دراسته ، العبارة التالية التي تعكس ما هو اكثر من رغبة لدى بالمستون بصدد اسكان اليهود في فلسطين ، والعبارة موجهة للقنصل بالعبع :

« ... ويجب علي ان اوعز لسيادتكم بقوة ان توسوا [ الحكومة التركية ] بان تقدم كل تشجيع عادل لليهود اوريا للعودة الى فلسطين . « (٨٢)

(٨٢) افنري ، المصدر السابق ، ص / ٥٦ .

وفي ٢٥ كانون ثاني ، ١٨٥٢ ، اعلن غيورغ هاولر ، الحاكم السابق لجنوبي استراليا ، في البرلمان الانكليزي قائلاً :

« ان العناية الالهية قد وضعت سوريه ومصر في طريق انكلترا نحو المناطق الاهم في تجارتها الاستعمارية الخارجية ، الهند والصين والارخبيل الهندي واستراليا .. ان الاصبع الالهي يشير الى انكلترا ان تعمل بقوة لخلق ظروف ملائمة في كل من هذين البلدين .. ويد انكلترا يجب ان تجدد سوريا بواسطة الشعب الملائم لهذه المهمة ، والذي يمكن ان تستخدم طاقته دائماً وبصورة فعالة ، اي بواسطة الابناء الحقيقيين لهذه الارض ، ابناء اسرائيل . » (٨٢)

ان احداً من الساسة البريطانيين لم يكن ليخفي ما وراء الرغبة المتأججة التي كانت تستبد بهم لتوطين يهود العالم في فلسطين . وهذا سايدبوتوم يوضح اسباب تاييده لتلك الدعوة :

« وقد قامت حجتي لارجاع اليهود الى

(٨٢) ايلانوف ، المصدر السابق ، ص / ٢٣ - ٢٤ .

فلسطين على الاسس الملحية البريطانية بشكل بحت ... » (٨٤)

اما القادة الصهاينة ، فانهم - برغم كل الضجيج الذي اثاروه حول « الوطن القومي » و « محنة اليهود » و « المشكلة الازلية » الخ ... - لم يحاولوا ان يخفوا الدور الحقيقي الذي ستلعبه دولتهم المقترحة لخدمة الاستعمار . يقول هرنزل :

« ان عودتنا التي تنبأ بها الكتاب المقدس ... تشكل ... مصلحة سياسية ملائمة تماماً لتلك الدول التي تبحث عن شيء ما في آسيا . » (٨٥)

ويأتي الكاتب الاسرائيلي المعاصر . يوري افنري ، عضو الكنيست الاسرائيلي ، ليقول ان الحركة الصهيونية « ... كانت مظهرأ من مظاهر الاستعمار الغربي في نزعها الاخير . » (٨٦) هذه نماذج ، وليس كل ما هناك ، من

(٨٤) اسعد زوكي ، المصدر السابق ، ص / ٢٥١ .

(٨٥) الدكتور العظم ، المصدر السابق ، ص / ١٢٢ ، نقلاً عن هرتزبيرغ وايلانوف .

(٨٦) من الفكر الصهيوني المعاصر ، مركز الابحاث ، منظمة التحرير الفلسطينية ، بيروت ، ١٩٦٨ ، ص / ٢٤٠ .

بصريحات واقوال توضح المنبع الاصلي للفكرة الصهيونية . ولا بد من الاشارة هنا الى ان العديد من قادة الحركات القومية الاوربية ومفكريها مثل غاريبالدي ومازيني والسكرتير الخاص لنابليون الثالث ، والمفكر الالماني هيردر وغيرهم ، لم يدعوا فرصة تمر دون ان يرفعوا الصلوات للرب كي يزرع حب صهيون في قلوب حفنة من مثقفي البورجوازية اليهودية الصغيرة الشرقية ، ليحققوا من خلال ذلك مطامحهم في بلدان الشرق . وبطبيعة الحال ، فان انتقاء هذه الفئة من اليهود ، لم يأت بمحض الصدفة ، وانما كان نتيجة لادراك العقول الاستعمارية ، ان غير هذه الفئة الطافية على سطح الارض ، والتي لم تكن تملك جذوراً تشدها بايما تربة ، ما كان بالامكان اقتناع اية مجموعة يهودية اخرى بان فلسطين كانت حقاً المحطة الاخيرة لابناء اسرائيل او انها كانت وطنهم الحقيقي . كما كان بفعل الامال التي كان يضعها المستعمرون في اليهود الشرقيين الذين هم ، كما يقول الاستعماري البريطاني ، كوندرا ، « عنصر المستقبل بالنسبة للاستعمار المزدهر . » (٨٧)

غير ان هذا لا يعني ، بطبيعة الحال ، ان تلك

(٨٧) الدكتور رزوي ، المصدر السابق ، ص / ٤٤ .

الفئة المثقفة من اليهود كانت مجرد آلة بيد الاستعمار . فهذه الفئة كانت لها هي الاخرى مطامحها وتطلعاتها في الانتقال الى درجة اعلى في السلم الطبقي . وكانت الحركة الصهيونية مجالاً طبيعياً لتحقيق ذلك بالنسبة لزعمائها الذين منغم هرتزل في ثلاث فئات : « بعضهم يستغلني .

وبعضهم يحسدني او يخونني ، وفريق ثالث يتخلى عني في اللحظة التي يجد فيها مستقبلاً احسن . » (٨٨) ان فلسطين ، بالنسبة لنماذج كهذه ، كانت بالتأكيد فرصة فريدة . وفي هذا يقول هرتزل : « فقط اولئك الواثقون من انهم سيحسون من وضعهم هناك سيرحلون ... وهكذا فان العودة ستكون في الوقت عينه صعوداً طبقياً . » (٨٩) بالرغم من ان اسطورة « العودة » التي تشكل واحداً من الاسس الهامة في الفكر الصهيوني ، تخص جميع اليهود الذين هم من نسل ابراهيم ( ! ) ولا تخص باي حال من الاحوال ، فقط ذلك القطاع الفقير البائس الذي يحلم بالصعود الى درجة اعلى في السلم الطبقي !

وهنا ينبغي الا ننسى الدوافع الذاتية التي

(٨٨) اليوميات ، ص / ٤٤٠ .

(٨٩) هرتزبرغ ، المصدر السابق ، ص / ٢١٣ .

كانت تتحكم بهرتزل - الشخصية الترجسية الطموح - المصاب بعقدة العظمة - تلك العقدة التي أوحى له مرة انه سمع صوتاً « ... يهتف لليوم الذي سيحكم فيه ( الملك هرتزل ) . » (٩٠) وبرغم ان تحليل شخصية هرتزل بعيد عن مجال هذا البحث ، الا انه قد يكون من المفيد ان نلقي بعض اشارات سريعة يمكن ان تسقط ضوء على جانب آخر من المؤثرات التي ساهمت في وضع اللبنة الاولى لبروز الحركة الصهيونية .

ان هرتزل الذي لم يكن يؤمن بالمقيدة اليهودية حتى انه وضع موسى في صنف « المخادعون الماكرون » (٩١) لم يكن لينسى ماروته له امه في طفولته من انه كان ينتمي الى قبيلة بنيامين التي تجري في عروقتها « دماء ملكيه » (٩٢) برغم انه ورث عن الحضارة الاوربية ميراثاً ثقافياً تدخل في تركيبه النزعة التشكيكية وروح البحث العلمي . ولعل تلك الحكاية هي التي دفعت الى الاصرار على ان يتعلم اولاده على طريقة الامراء بعيداً عن الاطفال

(٩٠) ستوارت ، المصدر السابق ، ص / ٢٧١ .

(٩١) ستوارت ، نفس المصدر ، ص / ٨١ .

(٩٢) ستوارت ، نفس المصدر ، ص / ٢٩ .

الاخرين ، طالما كان يهيوهم لتولي الملك في مملكته القادمة . كان هرتزل يطلق العنان لاحلام يقظته على نحو غريب ، حتى انه كثيراً ما كانت تختلط عليه الحدود بين الحقيقة والحلم . فمع انه كان يريد لواحد من ال روتشيلد ( بعد ان يكسبهم الى جانبه ) ان يكون الدوتشي الاول ، غير انه لم يستطع ان يبعد عن ذهنه خاطرة ان يحتل ابنه ، الذي كان يحمل اسماً المانيا وليس يهودياً ، هانز ، منصب الدوتشي في وقت لاحق ، (٩٣) على ان يكون هو مستشاراً له . كما انه لم يستطع مرة ان يحول دون ان تترقق الدموع من عينه وهو في طريقه الى ميدان السباق في باريس ، حين تراءى « ... له في العبد المزدهم بزعماء البلاد انه يخاطب ابنه الشاب بعبارات من طراز ( ياصاحب السمو ! ولدى الحبيب ! ) ... ويقدم فرسان هرتزل الدارعون عرضاً مؤثراً للمدفعية والاشاة انطلق في سيره من قصر الدوتشي . » (٩٤) . لقد بلغت عقدة العظمة بهدأ جعلته يتصور انه كان اقدس من التوراة . فهو يسجل لنا في مذكراته ما حدث اثناء زيارته للمعبد اليهودي في صوفيا : « وقفت على منبر المذبح .

(٩٣) ستوارت ، نفس المصدر ، ص / ٢١٦ .

(٩٤) ستوارت ، نفس المصدر ، ص / ٢١٦ - ٢١٧ .

ولم اكن واثقاً تماماً كيف اواجه الجمع دون ان ادير ظهري لقدس الاقداس ، واذا بأحدهم يصيح « لابأس عليك من ان تدير ظهرك الى صندوق العهد ، فانت اقدس من التوراة . كان كثيرون يريدون تقبيل يدي . » (٩٥) ويقول لنا دزموند ستیوارت : « ... ان زيارة منزل هرتزل تعتبر في الدوائر الصهيونية زيارة لبلاط الملك . » (٩٦) تلخيصاً لكل هذا ، لابأس ان نورد ما يذكره ، اليكس بين ، كاتب سيرته ، من ان هرتزل « .. كان يريد النجاح ، والمكانة ، والنصب ، والشهرة ، وكان يريدتها بسرعة . » (٩٧)

هذا الموقف او البحث عما يحب هرتزل ورفاقه من الزعماء الصهاينة ان يتصوروه بأنه (مجد مقفود) و (امه ضائعة) ، في فلسطين والنضال من اجل وطن قومي يقودونه هم ، هو الذي حدا بقيادة الحركة الى ان يوضحوا منذ البداية بان « ... من النادر ان يجد رأس المال الكبير فائدة له هناك ، فيما ستجد البورجوازية اليهودية الصغيرة والطبقة الوسطى سوقاً لمنتجاتها في كل من هذا البلد ، وما

(٩٥) ستیوارت ، نفس المصدر ، ص / ٢٢٨ .

(٩٦) ستیوارت ، نفس المصدر ، ص / ٢٢٧ .

(٩٧) ستیوارت ، نفس المصدر ، ص / ١١٩ .

يحيطه . » (٩٨) كما يعلن بيرورخوف الذي يشارك بقية الصهاينة في فهمهم لحقيقة ان الراسمالية اليهودية الكبيرة ، لوجأت الى فلسطين ، فانها ستحول دون صعودهم طبقياً ، وتجعل احلامهم الكبيرة في ان يصبحوا ، هم ايضاً ، مستعمرين صفار ، احلاماً أبدية .

غير انه لا بد من التاكيد هنا ان هذا الموقف من جانب المنظرين الصهاينة ، وكل ما سبق ان اوردناه في هذا البحث عن موقف البورجوازية اليهودية الكبيرة من الحركة الصهيونية ، لايعني باي حال ، ان هذه الطبقة ظلت محافظة على موقفها السابق وعدائها للصهيونية . فمنذ فترة ما بين الحربين ، ونظراً للتطورات الحاصلة على مسرح السياسة الدولية ، وبروز الحركات الفاشية والنازية ، وتنامي حركة التحرر الوطني التي ادت ، في ما بعد الحرب العالمية الثانية ، الى تسارع عملية تفتت النظام الاستعماري العالمي - منذ ذلك الوقت ، اتخذت البورجوازية اليهودية ، بوصفها جزء من النظام الراسمالي الاستعماري العالمي ، موقفاً جديداً ، موقف التأييد ، من الحركة الصهيونية ، ومن ثم ، الدولة الاسرائيلية ، بعد ان وجدت فيها

(٩٨) هرتزبرغ ، المصدر السابق ، ص / ٢٦٦ .

مايمكن ان يمنحها دماً جديداً قد يؤدي الى تجديد شباب النظام الامبريالي وادامة الوجود الاستعماري في ما اصطلح عليه فيما بعد - العالم الثالث .

ان دولة اسرائيل ، هدف الحركة الصهيونية قد برزت الى الوجود لتكون مدخلا جديداً للشرق الاوسط وقاعده استعمارية ، قبل اي شيء اخر . واذا كان ذلك قد تحقق تحت راية (الوطن القومي) ، فان هذا لا يمنع ان تكون الدولة اليهودية ، كما هي الان فعلا ، سوفا لتوظيف الرساميل الغربية ( المسيحية ) وما تنتجه مصانع الغرب من انتاج مدني ؛ وحربي بالدرجة الاولى ، بقدر ماهي كذلك بالنسبة لرأس المال اليهودي ، الذي يسمى ، بوصفه جزء من الراسمالية العالمية ، الى ان يحيل العالم كله ، لو امكن ، الى مسرح يمارس فوقه نشاطاته المختلفة .

ان دولة اسرائيل، هدف الحركة الصهيونية، لم تبرز الى الوجود ابداً لتكون مجرد سوق (وطنية) مكروسة للبورجوازية اليهودية . وواقع اسرائيل الراهن يؤيد ذلك . ومن ناحية اخرى ، فانه مثلما تحاول الطبقة البورجوازية اليهودية الغربية ان تحافظ على وجودها عن طريق استغلال الطبقة العاملة ( المسيحية ) التي تشكل العماد الرئيسي

للانتاج في الغرب ، فهي تفعل ذلك مرة اخرى بالنسبة للطبقة العاملة سواء كانت داخل اسرائيل او في اي من دول الغرب الراسمالي ، او بلدان العالم الثالث .

ومن ناحية اخرى فان رفض غالبية يهود العالم الهجرة الى اسرائيل ، يؤكد من جديد ان شعار ( الوطن القومي ) ، كان شعاراً اجوف ، كما يبرهن على ان المشروع الصهيوني قد اخفق في تحقيق الهدف الاساسي المعلن الذي قامت من اجله الدولة اليهودية ؛ الا وهو تجميع مايسميه الصهاينة ( الامة اليهودية ) المبعثرة في الشتات . ان هذا الفشل ، يؤكد ، من ناحية اخرى ، حقيقة ان الحركات الاستعمارية الاستيطانية لاتجري بدافع البحث عن قومية ضائعة او وطن مفقود ، وانما بدافع السلب والنهب والاستعمار ومن اجل حماية المصالح الاستعمارية ، كما الامر في جنوب افريقيا وروديسيا . والهجرة ، لهذه المناطق ، ومنها فلسطين ، ليست في الواقع الانبداً للانتماء القومي، في سبيل المطامح الاستعمارية . وان افضل صفة يمكن ان تطلق على الكيانات التي تشكل نتيجة مثل هذه الهجرة ، كاسرائيل مثلا ، هي انها مستوطنات

عنصرية (وطائفية بالنسبة لاسرائيل) ، استعمارية  
في طبيعتها وفكرها عسكرية في طابعها ، وتوسعية في  
منهجها .

ومن هنا .. فان اعتبار الحركة الصهيونية  
على انها حركة قومية تمر عن ايدولوجية  
البورجوازية اليهودية ومصالحها ، انما يناقض  
الاسانيد العلمية والمعطيات والوقائع التاريخية  
المرتبطة بنشوء ونمو هذه الحركة ؛ كما يناقض  
حقيقة كون اسرائيل تجمعا استيطانيا يتخذ له من  
المقيدة اليهودية ، الرابطة الاساسية الوحيدة التي  
تشد اوصاله ، بهدف ان تكون ، اي اسرائيل قاعدة  
استعمارية متقدمة في المنطقة العربية ، قبل اي  
شيء اخر .

## صدر من الموسوعة الصغيرة

- ١ - المرب والحضارة الازربية  
د . نيمل السار
- ٢ - فلسفة الفيزياء  
د . محمد عبداللطيف مطلب
- ٣ - الحقيقة الاشتراكية لحزب البعث العربي  
الاشتراكي  
عزيز السيد جاسم
- ٤ - قصايا المسرح المعاصر  
سامي خشبة
- ٥ - الصناعات البتروكيمياوية ومستقبل النفط  
المصري  
د . محمد ازمهر السماك
- ٦ - الثورة والديمقراطية  
صباح سلمان
- ٧ - دانتي ومصادره العربية والاسلامية  
عبدالمطلب صالح
- ٨ - الطب عند العرب  
د . عبداللطيف البديري
- ٩ - انفولا .. الثورة وابعادها الافريقية  
حلمى شعراوي



دار الحرية للطباعة  
بغداد



دار الحرية للطباعة بغداد ١٣٩٨ هـ ١٩٧٨ م